حيوان له تاريخ
فى خدمة الأنبياء
أحمد بهجت
المختار الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمد بهجت

حيوان له تاريخ في خدمة الأنبياء

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م

إهداء

إلى إعجاز القدرة الخالقة في عالم الحيوان

أهدي سطور الكتاب

كل كلمة ركعة ..

وكل حرف سجدة ..

وكل نقطة فناء في الله وحب

أحمد بهجت

المقدمة

يقدم لنا القرآن الكريم فى قصص الأنبياء والأولياء مجموعة من الحيوان الذى لعب دورا فى التاريخ .

الغراب الذى بعثه الله لابن آدم ليريه كيف يوارى سوأة أخيــه .

الطير التى ذبحها ابراهيم وفرقها على قمم الجبال ، وبعثها الله من الموت .

بقرة بنى اسرائيل التى أمر موسى بذبحها لكشف جريمــة قتل غامضة .

الذئب الذى اتهم ظلما بالتهام يوسف .

هدهد سليمان الذى أطلعه على نبأ بلقيس .

دابـــة الأرض التى أكلت عصـــا سليمان وهو ميت على كرسيه فخر عليه السلام على وجهه .

حمار عزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثـــه أمام عينى صـــاحبه .

الحوت الذى ابتلع يونس فى جوفه زمنا ثم قذفه الى البر لأنه كان من المسبحين .

كلب أهل الكهف الذى نام مع أصحاب الكهف ثلاثمائة عام وتسع سنوات .

ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان فى القرآن الكريم .

وهناك حيوان ورد ذكره فى السنن الصحاح ..

عنكبوت الغار التى نسجت بيتها على باب الغـــار الذى اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

. . . .

نحن أمام مجموعة من أفـــراد المملكة الحيوانيـــة التى لعبت دورها فى الحياة وظهرت على مسرح الأحداث فترة ثم أسدل عليها الستار ، ذكرها القرآن الكريم مجرد ذكر ، أو قص موقفا أو أكثر من مواقف حياتها فى ومضات سريعة ، وبقيت حياتها نفسها غارقة فى الغموض

فى طفولتى ..

أحببت هذه المجموعة من الحيوان ..

كنت أقرأ قصص الأنبياء أو أستمع اليها فلا استطيع لحداثة سنى أن التقط قمم المعانى منها ، فكنت أكتفى بالتفكير فى الحيوان الذى صاحب النبى أو كان فى خدمته ..

وحين كبرت أكثر .. أخذ حبى للحيوان بعدا آخر .. كل كلب ضال فى الطريق هو كلب أريد أن أطعمه واربت على رأسه . من يدرى .. ربما كان حفيدا بعيدا لكلب أهل الكهف .. وكل حمار هزيل فى الريف هو بالنسبة لى مخلوق صديق وحبيب ، لم لا يكون ابنا بعيدا لحمار عزير الذى مرت به تجربة الموت والبعث .

ولقد ظللت طوال شبابى ابحث عن هدهد .. ثم أهدى الى احد اصدقائى هدهدا نجح فى اصطياده .. وصحبت الهدهد الى بيتى وأطلقته فى فضاء الغرفة ورحت اتأمله .. كان الهدهد منكسر النفس لو صح هذا التعبير .. كان الأسر وفقدان حريته يوشك أن يتجمع دموعا فى عينيه .. وقد مات هذا الهدهد فى اليوم الثانى بعد أن اضرب عن الطعام والشراب ، وأتذكر احساسى العميق بالحزن وهو يموت .. لم أكن أعرف ماذا أفعل له وهو يحتضر .. وأخرجت القرآن الكريم ورحت اقرأ له قصة سليمان والهدهد .. وأذكر ان الهدهد رفع رأسه الجميل والتفت مرة أو مرتين وهو يسمع الآيات ثم أراح رأسه واسلم الروح .. وخيل الى أنه مات راضيا ينصت لأمجاد جده البعيد .

وقد أوقعنى حبى للحيوان فى مشاكل عديدة ..

ما أكثر المرات التى عدت من الطريق وانا احمل كلبا صغيرا أو قطا أجرب الى أهلى .. ويبدأ الصراع بينى وبينهم ويرفض أهلى هذا الضيف الجديد الغريب ، وأحاول عبثا أن اقنعهم بأننى سأموت لو تخليت عنه .

كنت زائرا شبه يومى لحديقة الحيوان .

كنت أقف أمام أقفاص الحيوان محاولا كسر حاجز الصمت

الذى تلتف به هذه الخلائق ، محاولا فهم ما تريد قوله ولا نستطيع نحن التقاطه ..

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور ..

وجاء عليه وقت آمن فيه أن الصدق هو أعظم ما فى الوجود من قيم .. ولقد وجد الصدق كمادة خام فى الحيوان ، مثلما نجد الماس خاما فى الأرض لم يصقل بعد . ان للحيوان نظرة صريحة مستقيمة ثابتة حين ينظر اليك .. نظرة تخلو من الخداع والكذب والمداراة ، حتى لو كان الحيوان وحشا

من وحوش الغاب ونظر اليك ، فانك لواجد فى عينيه رغبة روحه فى التهامك .. لا يدلس عليك أو يخدعك ..

هو الصدق الوحشى العارى ذاته .. وذلك صدق لا وجود له بين بنى الانسان .. واذا كانت وحشية الحيوان صادقة ، فان ألمه أصدق ، وبكاءه أعظم صدقا ، أحيانا يبكى الانسان كجزء من خطة موضوعة .. أما الحيوان اذا بكى .. فذلك هو الألم الصادق الذى يستحيل على أرجاء الكون الا تهتز له بالتأثر .

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور أكثر .

راح حبى للحيوان الذى عاصر الأنبياء ينمو فى قلبى يوما بعد يوم . كان حبى بغير جسد .. لم يكن ممكنا ان ألمس هذا الحيوان ، واستبدلت بالجسد أجنحة الروح ، وقرأت كثيرا عن طباع الحيوان وعاداته .

ومن المدهش ، ان القرآن الكريم تنزل منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفيه هذه الاشارة السريعة لقصص الحيوان الذى عاصر الأنبياء والأولياء .

ورغم ذلك ، فليس هناك كتاب واحد يحكى قصص هـــذه المجموعة من الحيوان ، لماذا ؟ أى سر يكمن وراء هـــذا التجاهل ؟

أرقنى السؤال كثيرا .. ثم هديت الى السر .

أيكون السر ان هذه المجموعة من الحيوان كانت تخدم الأنبياء والأولياء .

لقد حكيت قصص الأنبياء والأولياء فى عديد من الكتب ، ولم يكن ممكنا فى قصص جادة وخطيرة ، يتعلق بها خـــلاص الانسان وآخرته ، ان يلتفت احد لهذه الأصوات الضعيفة القريبة من الأرض ، أصوات الحيوان ، أو يتابع مجـــرى تفكيرها — لو كان لتفكيرها مجرى — أو يصور لنا دهشتها — لو كان ممكنا أن يدهش الحيوان — وهى تعيش مع الأنبياء وتشهد هذه المعجزات أو تكون هى نفسها جزءا من المعجزات .. وهكذا ظلمت هذه المجموعة من الحيوان وانطفأت سيرتها الخاصة على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان . واذا كانت شدة الظهور تلد الخفاء ، فقد حدث نفس الشىء هنا .

ومثلما يحدث لنجوم الليل حين تظهر الشمس فى الصباح .. حدث لهذه المجموعة من الحيوان .. لم تغادر مكانها ولكن ضوءها ذاب فى الضوء الأقوى .. ذاب فى شموس الأنبياء وعلى سبيل المثال .. لم يعد مهما فى قصة عزيز الذى أماته الله مائة عام مع حماره ، ثم بعثه وبعث الحمار أمام عينيه ، لم يعد مهما فى القصة غير النبى عزير ، أما الحمار فمن يلتفت اليه أو يفكر فى تأثير التجربة عليه غير حمار من بنى جنسه .

أيضا لم يعد مهما فى قصة يوسف ، وقد القى اخوته تبعة اختفائه على أنياب الذئب .. لم يعد مهما فى القصة غير أحزان يعقوب وأساه على ولده ، أما الذئب فمن يهتم ببراءته أو يلتفت الى أحزانه غير ذئب من بنى جنسه ..

وما ينطبق على الحمار والذئب ينطبق على الكلب والحوت وبقية الحيوان الذى عاصر الأنبياء .

لقد ظلت تجربة هذه المجموعة سرا صامتا يبحث عن لسان للتعبير عن نفسه .. ولقد مات سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام .. ومات بموتهما من كان يعرف منطق الطير ولغة الحيوان ويستطيع التفاهم معها .

احسب انى غبطت داود وسليمان كثيرا .

لم اغبط سليمان على الذهب الذى كان يغطى به جدران قصوره ، فاننى أعلم أن سليمان حين مات لم يصحب معه من هذا الذهب شيئا ، انما ولد عاريا تتقبض أصابعه على الهواء ، وعاد الى الأرض وقد تقبضت أصابعه على الهواء .. ولقد أدرك سليمان قبل أى انسان آخر أن الذهب خادم للانسان فألزمه مكانه كخادم ، وكان احساسه به أقل من احساسه بزنابق الحقول التى تخرج من التراب ..

لم اغبط سليمان على تسخير الجن له .. فاننى لا أحب أن يكون كل جن الأرض تحت أمرتى ..

لم اغبط سليمان على الاسلام ، فقد تلقيت الاسلام عن شمس الأنبياء وأول المسلمين واكملهم ..

انما غبطت سليمان على شىء واحد ..

هذه القدرة على فهم لغة الطير والحيوان ومخاطبته ..

أن يجلس الانسان ليحدث هدهدا .. ويأمره فيستجيب ، ويناقشه ويستمع ..

ان يبتسم الانسان من كلام نملة تحذر بقية النمل منه .

تلك قدرة تثير دوار العقل والقلب معا ..

على أى حال ..

اذا كان داود وسليمان قد ماتا .. فان الفن باق الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ليكن الفن لسانا للتعبير عن حياة الحيوان الذى عاصر الأنبياء أو كان فى خدمتهم .

ولا بأس أن يستعين الفن بالعلم فى الجزء الذى يمس طباع الحيوان وعاداته وسلوكه .. لا بأس أن يستعين الفن بالخيال فى الجزء الذى يمس حياة الحيوان ومشاعره وأفكاره .. أما الجزء الذى يتصل بقصص الأنبياء .. فتلك حقائق على الفن أن يحنى رأسه لها ويأخذها كما هى ، بل ان الفن هنا ليشرف كثيرا حين يصير خادما يدعو الى الله بطريقته الخاصة .

أيقال لنا أن للحيوان غرائز تسيره ، وأنه بلا عقل ..

أيقال لنا أن الحيوان مخلوق أبكم ليست له لغة ..

انقسم العلماء قديما الى فريقين فيما يتصل بادراك الحيوان ولغتـــه .

فريق يرى أن الحيوان مجرد من الوعى أو العقل من أى نوع .. ورأى هذا الفريق ليس جديدا ، وانما ينحدر من رأى ديكارت .. الذى كان يعتبر مجموع الحيوان مجرد آلات ذاتية الحركة .. أما الفريق الآخر فكان يرى أن الحيوان مهيأ بجميع مميزات البشر العقلية .. ويعرف هذا الرأى بمذهب التشبيهية الانسانية Anthropomorphism

وهو مذهب قديم لم يبدأ مع نظرية دارون عن نشوء واصل الأنواع ، بل الى ما قبل ذلك بكثير ..

وقد تأثر كثير من العلماء المشهورين بمذهب التشـــبيهية الانسانية هذا .. وكتب العالم الألمانى الشهير بريم Brehm صاحب الموسوعة الكبيرة عن حياة الحيوان يقول :

« ان للثدييات ذاكرة وذكاء ومزاجا ، وكثيرا ما تكون لهـــا شخصيات فردية محددة ، كما يمكنها أن تفرق بين الأشياء وأن تعى الفروق فى الزمن والحيز واللون والنغم ، كما أنها قادرة على أن تتعرف على الأشياء وتحكم عليها ثم تتعقل ، وهى تعرف الأخطار وتفكر فى الطرق التى تتجنبها بها ، وهى تظهر الحب والكراهية ، وتحب الأليف والصغار ، وتعبر عن الشكر والولاء ، والاحترام والازدراء ، والغضب والرقة ، والمكر والمهارة ، والأمانة والخيانة ، والحيوان الماهر يحسب للاشياء حسابها قبل أن يقدم على شىء منها ، والحيــوان الحساس الشهم يخاطر بحياته وحريته طواعية من أجل خير المجموع الذى يعيش فيه » .

هذه كلمات عالم شهير وقف حياته على دراسة الحيوان ..

أما لغة الحيوان فقد ثبتت بشكل علمى قاطع .. مـــع اختلاف مدلول اللغة الانسانى عن مدلول اللغـــة الحيوانى مثلا ثبت أن لكل جماعة من الحيوان أسلوبا للاتصال والتفاهم .. أحيانا بالصوت أو باللمس أو بالرقص أو بالرائحة أو بالاشارة .. المهم أن هناك أسلوبا للتخاطب .. صحيح أن العلم لم يحل (بشكل مبدئى ولا نهائى) مفردات هذا الأسلوب .. غير أنه ثبت علميا أن هناك لغة للحيوان يستخدمها فى حياته .. وهى لغة لا تشبه لغتنا البشرية .

هذا الذى أثبته العلم بعد دراسات استغرقت جهد أجيال من العلماء والباحثين .

أثبته القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان .

منذ ١٤ قرنا من الزمان .. كان الحيوان يعتبر شيئا نجسا لا عقل له ولا منطق ولا لغة ولا قيمة .. اللهم الا القيمة التى يستفيدها الانسان منه ..

ثم جاء القرآن بنصوص صريحة تثبت أن للحيوان لغتـه الخاصة ، بل وآراءه الخاصة .

تأمل ما قالته النملة لبقية جنسها وهى تحذرهم من سليمان وجنوده ..

« قالت نملة يا أيها النمـل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

ان النملة تجهل أن سليمان يعرف لغتها ، وهى تجهل أنه يسمعها ويحس بها ، وهى تفترض أن جيش سليمان وجنوده سيحطمون النمل وهم **لا يشعرون** ..

ان النملة تستخدم فى تعبيرها كلمة **« يشعرون »** .

هذا دليل على أن الشعور شيء يعرفه النمل ، والا فكيف يستخدم فى لغته مالا يعرف .

ثم تأمل كلام الهدهد مع سليمان ..

ان الهدهد يقول لسليمان كلاما لا يقوله أعظم الفلاسفة الآدميين العقلاء على الأرض .

ان الهدهد لا يعجبه أن قوم ملكة سبأ يسجدون للشمس .. وهو يسخر منهم ويسأل سليمان دهشا كيف لا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ..

هذا الذى أثبته القرآن منذ ١٤ قرنا من الزمان ، ولم يزل العلم يحاول كشف طرف منه .. هو معجزة تشهد لهذا القرآن بأنه صوت الحق تبارك وتعالى .. كما تشهد للمسلمين القدامى بعظمة ايمانهم وعمقه ، فقد كان التيار السائد على عصرهم أن الحيوان لا ينطق ولا يشعر ولا يعى ولا يدرك ، ثم حدثهم القرآن بعكس ذلك فآمنوا ولم يرتابوا .. وصدقوا بغير طلب للدليل أو بحث عنه .

. . . .

انبعثت نفسى للكتابة عن الحيوان الذى عاصر الأنبياء وكان فى خدمتهم ..

قدرت أساسا أن تكون قصص هذه المجموعة من الحيوان من وجهة نظر الحيوان ذاته وبأسلوب المذكرات .

قلت أستعير عقولها وغرائزها وأحلامها وأحزانها وأكتب مذكراتها مستهديا بكلمة الفنان فان جوخ .

— حين ارسم زهرة .. أصير أنا الزهرة ..

كان شهر رمضان يقترب ، وكنت مطالبا بأن اكتب شيئا لصفحة الدين فى الأهرام ، وقررت أن تكون هذه المجموعة من الحيوان ضيوفا على الصفحة .. لم تكن المهمة يسيرة أو سهلة .. ولكنها كانت ممتعة رغم ذلك ..

ربما كان سهلا أن اتحول الى كلب أو ذئب .. لكن كيف اصير هدهدا .. وكيف اتشكل فى اهاب الحوت الأبيض الهائل الذى ابتلع يونس ..

حيرتنى البداية .. ثم هبت نسائم الرحمة الآلهية فهان كل صعب .. وسهل كل عسير .. وذابت الأحجار فى قمم الجبال التى عبرها هدهد سليمان اثناء طيرانه وحكت لى قصته .. كما ارتدت موجات صوت كلب أهل الكهف رموزا ليلية عميقة تعيد رواية حكايته ، وحدثتنى قوقعة قذفت بها مياه البحر انها شهدت حفل التسبيح المهيب الذى اقامه يونس فى جوف الحوت ..

وهربت من القاهرة كلها الى بيت صديق قديم فى الريف .. وهناك عكفت على القراءة والكتابة ، وكان لابد أن انخلع من حياتى اليومية فى القاهرة واخلو تماما لما سأكتب .

وقد اعتمدت على قصص القرآن كمرجع فيما يتصل بالجزء الذى يمس الأنبياء من القصة .. واستقيت معلوماتى عن طباع الحيوان وعاداته من موسوعة المملكة الحيوانية التى الفها ثمانية من علماء متحف التاريخ الطبيعى فى جامعة واشنطن .. وفيما عدا ذلك أطلقت العنان للخيال بغير حدود .

وبقدر ما كانت فترة البحث والقراءة ممتدة وصعبة ، كانت الكتابة نهرا من اليسر والسهولة ، وانقدح فى عقلى اثناء الكتابة ان كثيرا من الحيوان الذى عاصر الأنبياء كان رمزا عميقا لقدرة الله أو رحمة الله أو رمزا لاشياء أخرى عديدة .. كان جسد الحيوان جسدا لحيوان واشارة لشىء أخطر .

. . . .

وحل شهر رمضان وانا لم ازل أكتب ..

وبدأت انشر فى جريدة الأهرام مبتدئا بذئب يوسف .

كان ضيق المساحة حائلا دون نشر القصص كاملة ، وهكذا اخترت بعض القصص ونشرتها بعد اختصار يومى كان يجعلنى اشد شعرى واصرخ فى المطبعة ..

واذكر مثلا انه قيل لى وانا أكتب عن كلب أهل الكهف : اختصر ..

فكتبت فى نهاية قصة الكلب اقول :

« خيل الى أننا ندخل باب الكهف من جديد ، لننام بحق هذه المرة .. خيل الى أن « ناهيش » هناك .. فى هذا الركن المظلم

لن أحكى ما وقع لنا بعد ذلك .. ربما حكيت ذلك يوما فى كتاب .. انهم يقولون لى اختصر .. ليس عندهم كلام الا اختصر .. اننى اهوهو غاضبا ، وأريد أن أحكى .. ولكننى أختصر » .

ومرت شهور ..

وجاءنى « المختار الاسلامى » يطلب نشر المجموعة فى كتاب ..

وعدت الى خلوتى وعكفت على استكمال القصص ..

. . . .

قد يسأل قارىء

هل هذا كتاب فى الدين أو فى الفن أو فى العلم .

أحسب ان هذا الكتاب أصلا كتاب فى الفن ، ان نسيجه الرئيسى فن .. بمعنى الاختراع والتخيل والابداع .. غير أن هذا النسيج الأصلى يمتزج بنسيجين آخرين هما النسيج الدينى والنسيج العلمى ..

يبدو النسيج الدينى فى قصة النبى الذى كان الحيوان فى خدمته ، وقد أخذت هذا الجزء من القرآن كما أسلفت القول واستعنت فيه بتفسيرات المفسرين للقرآن ، كتفسير ابن كثير وقصص الأنبياء وتفسير القرطبى والمنار للقرآن الكريم ، وراعيت الالتزام بأحداث القصة الأصلية كما وردت فى أرجح التفاسير ، ولم أخرج عليها .

ويبدو النسيج العلمى فى طباع الحيوان وعاداته التى استقيت من موسوعة علمية .. وقد حرصت أثناء الكتابة على عدم التحرك بحرية فى هذين النسيجين .

أما النسيج الأصلى للكتاب .. فقد تحركت فيه بحرية كاملة ، مدركا أن الفن يمنح الخيال حريته بغير حدود ، وهكذا سخرت من ظلم الانسان لأخيه الحيوان ما شاءت لى السخرية .. واخترعت أسماء لهذه المجموعة من الحيوان .. وتصورت مواقف سابقة فى حياتها قبل التحاقها بخدمة النبى الذى التحقت به .. ولم أكن مقيدا فى ذلك الا باطار الفن وحده .

أحمـــد بهجت

غراب ابن آدم

يشيب على الأرض كل شىء باستثناء ريش الغراب ٠
من رأى ما رأيناه واحتمـل ٠٠٠ لا يشيب مهما رأى بعد ذلك ٠

كمخلوق ٠٠ كنت شاهد الاثبات الوحيد فى أول جريمة قتل ترتكب على الأرض ٠٠ شـاهدت أول دم انسـانى يسفك غدرا ، وكنت أعرف أن الله سبحانه يسمع ويرى ويشـهد ٠

كان يوما قانى الرعب ٠٠

أعرف أن الشيطان هو السبب ٠٠

ما أغرب تصرفات الشيطان وما أسهل انقياد أبنـاء آدم لـه ٠

يحب الناس الله ويعصـونه ، ويكرهون الشيطـان ويطيعونه ، فما أغرب هذا النوع المسمى بالانسان وما أفدح تناقضاته ، وما أعظم حلم الله عليه ورحمته به ٠ ثائر أنا قليلا فمعذرة ٠

يقول الناس عن الأيام السوداء التى تمر بهم ٠

ـ كانت أياما أسود من ريش الغراب ٠

أعرف أن لون الغراب الاسود يثير ضيق الناس ، رغم أن أعظم الريش سوادا فى جسم الغراب لا يقارب سواد قلب الانسان اذا اسود قلبه ٠

أعرف ان الناس يسخرون من مشية الغراب ، انـه يحجل أثناء سيره كأى مجنـون يمشى على الجمر ، فهو يتواثب ولا يستقر خطوة ٠

نفترض ان مشيتنا غريبة • ليكن اننا نقفز ونحجل ••

أليس هذا أمرا طبيعيا بعـد ما رأيناه من ظلم الانسان لأخيـه الانسان •

كنا نسـير قبل خلق الانسان فنتهادى على الأرض ملـوكا بلونـنـا الأسود ، ومشيتنا القافزة •• ثم شاهدنا أخا يقتل أخاه فاضطربت مشيتنا من الهول ، وورث أبناؤنا عاهتنا وقضى الأمر •

يعتقد الناس أن صوت الغراب بالغ البشاعة •• ولا يكاد أحد من بنى جنسنا يصرخ فوق شجرة حتى يتشاءم الناس ••

قد يكون صوتنا أقل فى جماله من صوت البلبل •• غير أنه لايمت بنسب الى الشـؤم •• الشؤم كلمة انسـانية تنطبق على تصرفات ابن آدم •

أحيانا يتصرف الانسان تصرفا رهيبا ، فاذا صرخ غراب فوق شجرة هناك ، نسى الانسان تصرفه وذكر صوت الغراب وتشاءم !!

حيلة قديمة يلجأ اليها ابن آدم •• وليس كابن آدم مخلوق يستطيع أن يخدع نفسه أو يدلس عليهـا ••

يتهم النوع الانسانى جنس الغربان بالسرقة والخطف ، وعقوق الوالدين والأهلين •• يقول الناس عنا اننا نسرق الكحل من العين ونسرق الصابون من أسطح المنازل •• ونحن لانعرف ماهو الكحل أصلا •• كما أننا لانستخدم الصابون حين نستحم •• لانحتاج اليه ••

أجسادنا وأفكارنا فى درجة التلوث القصوى لا تحتاج اليه •

أعتذر عن لهجتى الحادة •

من رأى ما رأيته ينبغى أن يفقد صوابه ••

قاض أنا فى دنيا الغربان ••

وشاهد فى دنيا الناس ••

يفقد القاضى عدله ونزاهته حين يفقد حيدته وأعصابه وينحاز •

وقد لعبت الدورين معا •• قاضيا كنت فى الغربان •• عادلا كنت ومحتفظا باعصابى وحيدتى ، فلما هبطت للشهادة فى دنيا الانسان

انخلع عنى تاج القضاة وفقدت أعصـــابى وصرخت •• ثم بعثنى الله لالقن ابن آدم درسا فى الرحمة •

قلت يومها لقابيل ناعيا ناعبا بصوتى الحاد •

ــ نعرف أنك وحش قاتل ••

رغم ذلك فانك تجهل ••

رغم انك انسان •• يفترض فيه العلم ••

جاهل يجهل أنه جاهل • جاهل لا يعرف كيف يوارى سوأة أخيه •

لم أزل منفعـــلا فمعذرة •

أحيانا أفكر فيما حدث بهدوء وحيدة كالقضاة •

أن الاعتداء جزء من شيمة المخلوقات •• هذا صحيح •• أحيانا يعتدى احد الغربان على الجماعة • عندئذ تنعقد له محكمة ••

من المعروف عن الغربان أن لها محاكم تلتزم قوانين القسط والعدالة••

وتدور هذه المحاكمات عندما يغتصب أحد الغربان عش غراب آخر•• أو يحاول اغتصاب انثى غراب آخر •• أو يعتدى على طعام الغربان الصـــــغار ••

ولكل جريمة من هذه الجرائم عقوبتها الخاصة ••

فى حالة اغتصاب العش نكتفى بهدم العش المغتصب ونصرخ مؤنبين السارق ونلزمه ببناء عش لمن اغتصب منه العش •

فى حالة اغتصاب انثى غراب آخــر ، تقتل الجماعة المعتدى ضربا بالمنـــاقـــير •

فى حالة اغتصاب طعام الصغار تنتف الجماعة ريش المعتدى حتى يصبح كالصغار بغير ريش •

وأحيانا يضاف الى عقوبة التأنيب أو نتف الريش عقوبة الطرد من الجماعة • وتنعقد محاكم الغربان عادة فى أرض فضاء أو حقل واسعة وهناك ينتظر الذين سبقوا بالحضور بقية جنسهم ممن تأخر ••

ويستمر الانتظار أياما وليالى الى أن يتكامل العدد ••

عندئذ ننحى المعتدى ونقيم عليه حراسا وتبدأ محاكمته •
يشرع الباقون فى النعيب والنعيق جماعات ••
ويرد المتهم ناعبا ناعقا ••
ويعاود الشهود النعيب ويصفقون بأجنحتهم حانقين ثائرين ••
وينعق الغراب المتهم ويصفق بأجنحته هو الآخر ••
ثم يخفض الجانى جناحيه وينكس راسه ويمسك عن النعيب ••
هـذا اعترافه بالذنب ••

عندئذ يصـدر حكم القاضى فيثب الغربان فى الحقـل على المذنب ويوسعونه تمزيقا بالمناقير حتى يموت ••

ثم تنعب الغربان نعيبا متواليا وتطير ••
يحمل أحدها القتيل لدفنه ومواراة جثته ••
قد يكون الغراب القتيل مذنبا •
لكن للموت حرمة ينبغى معها اكرام الجسد بدفنه •

وهكذا يعدل الغربان فى الحالتين •• فى الحياة والموت •• والعدل فى جنس الغربان أقوى مافيها من غرائز •• والأصل ان العدل فى دنيـا الانسان مكتسب ونسبى ، بينما هو فى دنيا الغربان غريزى ومطلق •

ثمة قواعد أساسية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتطور عندنا • من خرج عليها خرج على الجماعة واستحق نبذه وقتله •

هذه القواعد والقوانين ليست من وضع الغربان •• انما هى حاكمية خلقها الله فينا وأودعهـا فطرتنـا والزم جبلتنا بها •

لانشرع القوانين لانفسنا ••

نعرف ان النفس تميل مع الهوى ، وتنحاز لما فيه مصلحتها ، وترى الخشبة البارزة فى عينيها قشة ، وترى القشة فى عين الغير شجرة •

تجاوز جنس الغربان هذا كله الى شاطىء الامان حين استسلم لتشريع الخالق •• ان عمل القانون يستلزم التجرد من الهـوى ، واى مخلوق يتجرد من الهوى غير الملائكة •

يذكرنى الملائكة بأيام الخلق الأولى •

كانت الأرض سلاما عظيما قبل هبوط الانسان فوقها ••

أمواج البحر عذراء لم تمخرها سفينة ، والرياح نقية لم تلمس جبهة انسان ، والحقول الموجودة فى الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر •• لم تزل الدنيا نقية لم تلوثها كذبة واحدة •• كل شىء ينبض بالصدق ••

الجبال تتألق بالثلوج البيضاء تحت أشــعة الشمس المنكسرة •• والبحار تتنهد فيرتفع صدرها الازرق المزبد وينخفض •• ومن الحقول الخضراء يتصاعد عطر ذكى ينتشى به الهواء •• كل شىء بالغ الجمال والسحر ، رغم ذلك كان هناك شــيئا موحشا فى الصــورة •• ان شيئا ينقص المشــهد •

أن يدب الانسان على الأرض وسط هذا الجمال ويرفع يديه لأعلى ضارعا لله ويسأل ••

عندئذ يبرز المعنى الحقيقى وراء خلق الجمال المجرد ••

تكتسب الأشــياء جمالا أقل ومعنى أكبــر حين تعــرف وتخطىء وتتوسل •

هذا شأن المعرفة دائما •• تغتصب البراءة فى البداية ثم تولد المعرفة بعد ذلك••يتمتع ملائكة الله بالبراءة •• أما الانسان فقد اغتصبت منه براءته فى الجنة •• اغتصبها الشيطان لحكمة أزلية عليا هى تعمــير الأرض وسكناها • كنا نعرف ان الانسان قادم من الجنة ••

فى البدء كانت الدموع •

كان بكاء آدم وحواء على الأرض مشهدا رهيبا فى البداية •• وعرفنا من صوت الدموع قدر الذنب ومعنى العصيان وصدق التوبة ••

كان آدم مقيما فى التوبة ان صح هذا التعبير ••

بالجلال وجهه المهيب •

كان فى العينين حنان أبوة يكتسح السدود ولا يتوقف عند ولد دون ولد •• أما حواء فكانت اما لكل النساء على الأرض ••

« ربنــا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنــا وترحمنا لنــكونن من الخاسرين » •

كانت هذه دعوتهما معا لله ••

• • • • • • • • • • • •

وضعت حواء أول بطن لهـــا •

لايبيض الآدميون مثلنا نحن الطيور ، انما يلدون ••

كانت حواء تضع فى البطن الواحد ولدا وبنتا ••

وفى البطن الثانى ولدا وبنتا •• وكان ولد البطن الأول يحل لبنت البطن الثانيـــة •

ولدت حواء قابيل واخته اقليما ••

ولدت هابيل واخته ليوثا ••

كبر الاخوة معـــا •

انحدر هابيل من التل وهو يضحك •• وجهه يترقرق بطفولة أعوامه الثمانية ، ووراءه يندفع قابيل وهو يمسك فى يده بفرع شجرة محـــاولا أن يلحق أخاه •• يلعبان معا كالعادة ••

لست أعرف لماذا يبدو أحد الأخوين رقيقا كزنابق الحقل •• ويبدو الثانى قاسيا كشوك الجبال •• يحدث دائما فى اللعب أن يختار قابيل دور الصياد ، ويختار لهابيل دور الفريسة ، ويحمى اللعب وتلمع عينا قابيل بالكراهية وهو ينهال على هابيل ضربا بما فى يده ••

فى البدء كان هابيل يضحك •• ترن ضحكته بين التلال والأشجار مثل ينبوع يضىء بالصفاء والمرح ، ويقسو قابيل ويمسك فرع الشـــجرة بيديه معا بدل يده الواحدة •• ويتحول وجه هابيـــل من السرور الى الألم ، وينتهى رنين ضحكته بما يشبه الصرخة ••

ويهرع آدم اليهما فيجد هابيل جريحا وقابيل ماضيا فى اعتدائه •• ويصرخ آدم :

ـــ قابيل •• ماذا فعلت بأخيك هابيل ••

ويرد قابيل ـــ نحن نلعب •• وقد اختار هابيل دور الفريسة •

ويصرخ آدم مؤنبا قابيل •• ويفصل بين الأخوين ••• يلوم قابيل ويمسح جراح أخيه الطيب •• ويحدثهما أنهما شقيقان خرجا من أم واحدة •• ويعيشان فوق أرض واحدة وينبغى أن يجمع بينهما الحب

لا الكراهية •• وكان أعظم ما يثير دهشتى •• أن قابيل كان يغلق فمه القاسى ولا يدافع عن نفسه •• بينما كان هابيل يدافع عن أخيه ويتوسل لأبيه أن يصفح عنهما معـا •

• • • • • • • • • • • •

فى العشرين من عمره •

ارتفعت يد قابيل وهوت على وجه هابيل بضربة قوية وهو يصرخ : هـذا كوخى أنـا •

تركت أصـابع الأخ على خد شـقيقه علامات حمراء واضحـة •• فوجىء هابيل بالاهانة ، واحتدم داخله الغضب وتجمعت فى عينيه دموع سريعة معذبة •

قال هابيل ببراءة ـ انظر الى يدى •• لقد تسلخنا فى بناء الكوخ•

قال قابيل بحسم ـ لن تبيت فى الكوخ بعد الغروب القادم للشمس •• لقد تكلم قابيل •

رد شقيقه بوداعة ـ يريد هابيل أن يقول كلمة هو الآخر •• اننى أحبك يا قابيل فلماذا •••• لم يسـمع قابيل شـيئا •• كان قد غادر المـكان •

لم أر هابيل يحدث آدم بما وقع •• لاأعرف لماذا •• ربما كان يحس أن قلب الأب يمتلىء بأحزان مصدرها تصرفات قابيل ، وخشى أن يزيد أحزانه عمقا ، وربما قال لنفسه أن تهديد قابيل كلمة لا يعنيها •• وحين جاء الغروب القادم للشمس •• فوجىء هابيل بأخيه قابيل يقتحم عليه كوخه وقد تقبضت أصابع يديه على حجر مدبب ••

وقبل أن يفتح هابيل فمه بكلمة ، كان الحجر يشق جبهته ويفجر منها الدم •• وحمله قابيل وألقاه خارج الكـوخ •• وضمد هابيل جرحه بالأعشاب ونام فى مكانه •• وفوجىء آدم بابنه ينام خارج كوخه •• وفوجىء بدمه المتجمد على جبهته •

وصرخ آدم نفس صرخته التقليدية وان كانت تشرب هذه المرة من حـزن أعمـق •

ـ قابيل •• ماذا فعلت بأخيك هابيل •

كان قابيل لا يشبه هابيل ••

وكانت اقليما شقيقة قابيل لا تشبه ليوثا شقيقة هابيل •

كان قابيل أقسى من هابيل •

وكانت ليوثا أقل جمالا من اقليما •

وكان المفروض أن يتزوج هابيل من اقليما ، ويتزوج قابيل من ليوثا ••

بينى وبين نفسى •• كنت أفضل هابيل على شقيقه ، وكنت مرتاحا لانه سيتزوج الأجمل •• ان هابيل لايغضب عندما نأكل من طعامه ••

شاهدنى يوما أقف أمام بيض الدجاج الذى يربيه فمد يده وناولنى بيضة •• وسررت من تعاونه مع جنس بسيط كجنسنا ••

هذا رجل يدرك حكمة التعاون بين الخلائق ، ويدرك معنى الرحمة ••

هو رجل يعرف الله ، ويحبه ، ويخافه •

أريد أن اركز عقلى لاضع شهادتى على جميع الخرائب والأطلال ، وأحكيها للرياح التى تصفر فى أعظم الأماكن وحشة •

صرخ قابيل ـ لا •• أنا خير منه •

كان الشيطان يقف وراء الكلمة ••

قالها ابليس عن آدم ، ويلقنها اليوم لابن آدم ليقولها عن أخيه •

عاد قابيل يصرخ أمام أبيه : لن أتزوج ليوثا •• سأتزوج اقليما •• كانت معى فى بطن واحد •• أنا أولى بها •

أفهم آدم ولده أن أخته لاتحل له ••

رفض قابيل أن يتزحزح عن موقفه ••• ادهشتنى جرأته ، ولم أعرف كيف يتصرف آدم •

قال آدم : ليقرب كل منكما قربانا الى الله •• من تقبل الله قربانه كان على الحق •

تنحى آدم عن الفصل بينهما وترك ذلك للسماء •

لم أعرف كيف يتقبل الله القربان • ولم أعرف ما هو القربان أصلا ••

انتظرت أياما شغلتنى فيها دنيا الغربان بقضاياها ومشاكلها •

كان هناك غراب مغتصب هارب نبحث عنه لمحاكمته •
وجاء يوم تقديم القرابين الى الله •
جاء هابيل يحمل أسمن كباشه ووضعه على الجبل وصلى لله أن يتقبل •
وجاء قابيل بقمح لم يزل أخضر فى سنابله •• جاء بقمح لم ينضج بعد •• كان قابيل حريصا وبخيلا الى الحد الذى فشلنا فيه — نحن الغربان — أن نذوق طعامه • قدم قابيل قربانه ومضى ••
وقف الشقيقان بعيدا ••
تمنيت فى قلبى — بوصفى قاضيا غير منحاز — أن يتقبل الله من هابيل •
هبطت من السماء نار أكلت قربان هابيل اشارة الى القبول •• وصرخ هابيل صرخة الحمد والفرح وصرخ قابيل بكلمة القتل ••
كان قابيل يقف وقد مد أمامه كفيه وراح يتأمل بنظره نقطة هناك عند الافق •• ورغم صمته المطبق فقد كانت تنبعث منه موجة من العداء تكاد تحس جسديا •
كان يوما رائعا من أيام الله •• الشمس تنشر دفئها فى الجو ، وأشجار الصنوبر الممتدة على طول الأفق تستحم فى أشعة الشمس ، وتأخذ جذوعها لون الكهرمان الذى تقذفه البحار ، ومن الجبال القريبة كانت تهب الرياح وهى تحمل من أعماق الوهاد والشعاب المغطاة بمخمل الغابات الأخضر ، عبير الغابة البكر والزهور الالهية ••
عاد قابيل يصرخ — لأقتلنك ••
لم يدر هابيل سر غضب قابيل عليه ••
لا يدرك النقاء عادة دوافع الاثم وشروره ••
لقد تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر •
قال لشقيقه ان الله يتقبل من المتقين •
عاد قابيل يتمتم — سأقتلك •
رد هابيل وهو يستدير عائدا لكوخه وازهاره ••
« لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك •• انى اخاف الله رب العالمين •• انى اريد ان تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » •

انصرف هابيل مع زوجته اقليما ..

تزوجا وعاشا أياما ..

حين ظهرت اعراض الحمل عليها كانت نفس قابيل قد طوعت له قتل أخيه ..

عثرنا على الغراب المغتصب الفار وبدأت محاكمته ..

استلقى هابيل على الأرض بعد عمل يوم شاق ..

لم يكد يتوسد حقل الزنابق حتى استغرق فى النعاس .

انحدرت الشمس نحو الغرب ..

استمرت محاكمة الغراب الآثم ..

امتلأت السماء بدم الشفق .. وتسلل قابيل وهو يشدد ضغطه على فك حمار عثر عليه فى الغابة .

مات حمار فى الغابة القريبة فأكلت السباع لحمه وأكلت النسور ما بقى منه وشربت الأرض دمه وبقى فكه العظمى ملقى على الأرض .

حمل قابيل أول سلاح فى الأرض وراح يمضى باحثا عن شقيقه .

وجده نائما فتحرك نحوه ..

أثاره شىء لست ادريه فى الوجه النبيل الحالم .

استيقظ هابيل وفتح عينيه ..

ارتفعت يد قابيل بالفك العظمى وهوت بسرعة ..

انبثق الدم من وجه هابيل وملأ صدر قابيل ..

عادت اليد الآثمة تهوى على الوجه الطيب .

وفى الضربة الخامسة .. ارتطمت يد قابيل بطين الحقل ..

سكنت حركة هابيل تماما .. وادرك قابيل أن أخاه قد مات ..

كفت يده عن ضرباتها السريعة القاسية .. جلس واجما امام ضحيته..

لم ننته بعد من محاكمة الغراب الآثم .. أجلنا المحاكمة للغد .. أقمنا على الغراب حرسا وانصرفنا ..

وقفت على شجرة فوق رأس قابيل ونعقت صارخا ..

ـ قابيل .. ماذا فعلت بأخيك هابيل .

رفع قابيل رأســه ونظر الى ••
كان وجهه يرتعش ••

• • • • • • • • • • • • •

استغرقت محاكمة الغراب المتهم أياما ••

كان يكذب •• وينكر التهم المنسوبة اليه •• ويجادل •• غير أن تقدم المحاكمة كان يضــيق الخناق حول عنقه ، وطوال الــوقت الذى استغرقته المحاكمة كان قابيل يحمل أخاه على ظهره ويسير به •

لا يعرف ماذا يفعل بجثته ••

ان النسور تحوم حولهما •• والوحوش تقبل على الرائحة ••

وقابيل يخشى أن يترك أخاه فتلتهمه الوحــوش •• ولذلك يحمله على ظهره ويسير ••

لا يعرف ماذا يفعل به •• ولا يعرف كيف يتصرف فيه ••

انتهت محاكمة الغراب وثبتت كل التهم المنسوبة اليه ••

وأصدر القضاة حكمهم عليه بالموت •

تم تنفيذ الحكم فى الغراب الآثم ••

حملت الغراب الميت لدفنه فى مكان بعيد ••

كنت أطير وأنا أحمله فى منقارى حين أحسست ان قدرة خفية توجه اجنحتى نحو قابيل •

لم أكن أنوى أن أمر على قابيل •• لا احب قابيل ••
لكن اجنحتى تتجه رغم ارادتى اليه ••

ثمه أمر جليل يعلو على ادراكى ويوجه اجنحتى ••

أمرنى احــد الملائكة الكرام ••

ــ ايها الغراب •• ان الله تبارك وتعالى يبعثك لترى ابن آدم كيف يوارى سوأة أخيه ••

هبطت على الفور بحملى امام قابيل ••

وضعت الغراب الميت أمامى ورحت أحفر الأرض ••

حفرت الأرض بمخالبى ومنقارى ••
ساويت اجنحة الغراب الميت الى جواره ••

رفعته بمنقارى ووضعته فى لحده ..
صرخت صرختين قصيرتين ، ثم آهلت فوقه التراب ..
بعدها نظرت لابن آدم ..
قالت نظرتى : قتلناه بالعدل ورغمها نعرف لجثته حق الاحترام .. اما أنت ..
رحت أنعق وأنعب فى وجهه ..
بعدها طرت فى الهواء متجها نحو الغرب . .
سمعت وأنا اطير مبتعدا صرخة قابيل ..
« يا ويلتى أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ».
خيل الى ان الصرخة تحترق بالندم ..
لم اعرف من أى نبع كان ندمه يصـــدر .
اكان نادما لأنه حمله كل هذه الأيام وهو يجهل دفنه ..
اكان نادما لأنه قتله بغير الحق ..
لا أعرف ..
كل ما اردت معرفته هو حال زوجة هابيل ..
ملأنى السلام حين عرفت انها تنتظر الوضع .
أردت ان اطمئن ان الجنس البشرى ينحـــدر من صـــلب رجل كريم يخاف الله ..
اعرف ان ابناء قابيل القاتل سيملأون الأرض .. اعرف ان الصراع لن يتوقف بينهم وبين ابناء الشهيد الطيب ..
وربما تكررت مأساة الأب مع الابناء ..
أعرف هذا كله .. وأجهل الحكمة من وراء هذا كله ..
ليست وظيفتى هى المعرفة ..
شاهدا كنت على ابن آدم واستاذا له لحظة من الزمن ، لكن مهمتى ليست هى المعرفة .
ربمـــا كان الانسان يعرف ..



طير ابراهيم

نطير معا فى تشكيل رائع فى السماء •

عائدون فى طريقنا الى الوطن •

ليس وطننا هـو البيت الأخضر الذى بناه ابراهيم الخليل •

وطن الحمام عادة مقسم مجزأ ••

يحمل الحمام نصف وطنه فى قلبه ، ونصفه الثانى فى قلب من يحب •

كنت اتقدم السرب •• فردت اجنحتى ورفعت منقارى لأعلى وانطلقت •• تبعنى سرب الحمـام •• حـركت اجنحتى ورحت اتمايل •• لـو كان الهواء هنـاء مصفى فاننى اسبح فى هنـاء مصفى •

حمدا للهان خلقنى طيرا ••

لست أعرف كيف تحتمل الخلائق التى تدب على الأرض حياتها على الأرض •• فى الطيران ألف متعة لا تكشف عن نفسها الا لمن يرتفع ••

من الجو تبدو الحقول الخضراء زاهية الخضرة •• وعلى الأرض تنخفض درجة الخضرة ، ويدخل التـراب عينيك ويضطرك الى البربشة ••

شاهدتها أول مرة فى حياتى فى موقف « بربشـة » بعينيهـا •

حمدا لله أن خلقها لى •

حمامة بيضاء اسمت نفسها « ناشـا » •

كان لها اسم آخر قبل ان تقع فى الحب ..

يقوم الحمام بتغيير اسمه حين يحب .. لا يعــود الاسم القــديم كافيا للدلالة على الذات الجديدة التى تولد بعد الحب .. نعرف ان ذاتا جديدة تولد بعد الحب .

نعرف اسرار الحب كله ..

نحب خالقنا الذى اوجدنا من العدم .. ثلاثة ارباع الحب نعطيه لله ..

ونحب الهواء الذى يحملنــا كما يحمل النغم .. نصف الربع الباقى هدية للهــواء ..

نحب الانســان فنطعمه لحمنــا بغير ما ألم . ربع الربع البــاقى للانســان ..

ويبقى ما يبقى من حبنا للاناث ..

يبقى من حبنا للاناث قدر فى حجم حبة القمح .

يستصغر الانسان حبة القمح ويلقيها على الأرض ..

بينما كل حقول القمح الذهبية التى تطعم الملايين كانت فى الأصــل حبة قمح واحــدة ..

فى قصص الحب الكبرى لا قيمة لوزن الحب أو ضخامته أو حجمه ..

تكمن القيمة فى القدرة على الاستمرار فيه .. ونحن نحب حتى نموت حبــا ..

حين مرضت أمى وماتت .. أدرك أبى شىء فاجع غامض مروع ، كنا أطفالا نرى أبى دائم القفز والمرح والحيوية .

حين حملوها من أمام عينيه نكس رأسه فى الأرض ولم يقل شــيئا..

جاء اليوم الأول وهو صامت لا يطير ولا يأكل ولا يشرب .. كان يفتح منقاره ويغلقه كأنه يقول شــيئا ..

وفى اليوم الثانى رقد على بطنه وهو صامت يرفض ان يأكل أويشرب أو يطير أو يفتح منقاره ..

وفى اليوم الثالث رقد على جنبه وتنهد ، بدا كأنه يحمل جبلا على صــدره ..

وفى فجر اليوم الرابع دس منقاره فى جناحه ومات ..
وحين حملوه من أمام اعيننا كان جناحه مبللا كانه بكى بعد ان مات .

. . . .

. . . .

كنا أطفالا لا ندرك ان الحب نسيج أصيل فى الكون .
بنى الكون كله على الحب والوفاء والسلام ..
حملت احدى الحمائم غصن زيتون من الأرض لسفينه نوح حين كف الطوفان عن تدفقه واستسلم لأمر الله ..
من يومها صـــار الحمام رمزا على السلام العميق ..
يعرف الناس عنـــا ذلك .
غير انهم يجهلون ان الحمام رمز على الوفاء والحب والبعث .
بعث الموتى ..
لا يفهم بعث الموتى غير من يعرف الحب .
الحب ذاته بعث من موت العـــادة وملل الألفة وانعدام المعنى ..
وحين يخفق بالحب قلب المخلوق يبعث ما كان ميتا فيه ..
كيف يؤمن المخلوق ببعث القلب وينكر قيامة الجســـد ..
نعـــم ..
فى الحب لحظة يستدعى فيها الأحد عباده فينهضون من تراب النوم .
أى قدرة هذه التى تستطيـــع استدعاء أحلام التاريخ من عبـــاءته الترابية .. غير قدرة الحب ..
تعالى الله وتقدس اسمه ..
لم ازل أطير فى الفضـــاء ..
عائد اليها .. الى ناشـــا ..
فى البدء سوف آمسح منقارى بالميـــاه التى يضعها لنا ابراهيم ..
اخفض اجنحتى لذكر ابراهيم ..
صاحب بيتنا وبيت الله ..
المسافر دائما الى الله ..
خليل الله ..

كم أحبـــه ••
يستحيل أن تدنو الخلائق من ابراهيم ولا تتأثر ••
أول من وضع قلبـــه قوانين توحيد الحب ••
أشعل جســـده الكريم كالشمعة ليضيء للخلائق ••
ألقاه اعداؤه فى النار ، فانطفـــأت نار الأرض فى نار الســـماء التى تشتعل فى قلبـــه ••
لا تحرق النار نارا اعظم منهـــا ••
وليس اعظم من نار الحب ••

• • • • • • • • • • • •

ناشـــا ••
يدق قلبى حين اذكرها ••
كانت بيضاء ونحيله •• وكان منقارها عاديا •• ولم يكن فى جســـدها شيء مميز ••
كنت أجمل منهـــا • •والذكر فى الحمام عادة أجمل من الانثى •• غير ان الجمال هنا ليس غير ضعف مســـتتر •• ان فى نحول الانـــاث وبؤسهن شيء لا يقـــاوم ••
ليس هناك مخلوق يشـــبه مخلوقا آخر ••
وناشـــا لا تشـــبه أى حمامة ثانية فى الأرض ••
ربما كانت أقل الحمام جمالا •• ربما كان فى مشـــيتها شيء يوحى بالثقة ، وان كان فى الحقيقة يخفى انكسارا بالغ العذوبة ••
نوع من العذوبة الغامضة التى يستحيل افشاء سرها ••
آه •••
اذكر لقائى الأول معها ••
كانت تبربش ••
دخلت هبة من التراب فى عينيها فراحت تبربش ••
فردت احـــد اجنحتى أحميها من التراب فحيتنى تحيـــة رقيقـــة من ريش ذيلهـــا ••

لم يدر بيننا حوار ••

رفعت رأسى بحركة سريعة وادرتها ونظرت اليهـا • رحت انقل رأسى وأسير •• حولها أســير •• حولها أطوف •• حولها أفرد أجنحتى •• حولها أطير فجأة •• ادور •• ادور •• رأسى يدور •• قلبى يدور •• وهى تقف فى مكانها ثابتة ترمقنى ••

اكنت أريها بأسى وقوتى ورقتى فى نفس الوقت ؟ •

اكنت اغازلها كما يظن الناس ؟ •

اكنت احدثها بلغة الصمت الذى يقول أكثر مما تقول الكلمات ؟ •

لا ادرى ••

ربما كنت أفعل هذا كله •• وربما كنت اتخبط حولها بغير ان أدرى •

أقول لا أدرى ••

وفى الحب « لا ادرى » هذه أغلبية ••

ما يدريه العاشق عادة هو الصورة التى يرسمها فى نفسه لمن يحب ••

اما الحقيقة •• فتبقى ملكا لله وحده ••

تحدثنـــا قليلا ••

خيل الى أن الكلمات تنحدر من منقارها كانشـــاد بلبل أو تســبيح كــروان ••

اكتسبت الكلمات معانى جديدة لمجرد صدورها منهـــا ••

تحرك نبع السلام القديم الذى حمله أحد أجدادى حين عاد بغصن الزيتون فى منقاره •

ذابت كل الثلوج فى قمم الجبال •• وانحنى السحاب على زهور الربيع وراح يمسح رؤوسها ويقبلها •• ولد فصل الربيع داخل قلبى ••

ايكون هذا هو الحب •

سألتها : ما اســمك

قالت : نوشــكا

قلت : سيصير اسمك القديم بعد لحظات

قالت : الريح تحمل كلماتك بعيدا فلا أسمعك •

لم أتــكلم

حولها ادور •• أفرد اجنحتى واثنيها •• أطير عاليا وانقض فجأة •• حولهــا أطوف •• بقلب حان وروح عطــوف •• حولهــا ارتعش •• اتخبط •• أطوف •• ادور ••

انتهى اعتراف فاحسست اننى فقدت ذاتى القديمة ••

كنا نتقابل كثيرا فى فناء بيت ابراهيم ••

هو البيت الوحيد الذى كان ينثر الحبوب للحمام ، وينثر الطعــام للنمل ، ويفتح الباب للضيوف •• ويذبح اسمن عجــوله حين يزوره الملائكة فيحسبهم ضيوفا من البشر ••

كنا أربعــة من الطيور قد لجأنا لبيتــه ••

هى •• وأنا •• واثنان غيرنا ••

نوشكا القديمة صارت ناشــا ••

جاءتنى يوما تقــول ••

ــ قل لى كيف تريدنى ان أكون لأكون •

وسدت منقارى فى رقبتها وهمست

ــ لا أريد غيرك • أريدك كما انت ••

قالت : ولكنى لســت جميلة •• بقيــة الحمــام لا يحبنى •• انهم لا يطعموننى ••

قلت : أطعمك نصف قلبى ••

قالت : والنصف الثانى

قلت : قد تجوعين مرة ثانيــة

حركت رقبتها بزهو ••

سرنا معا على الأرض •• اشرت لها الى حبة قمح بمنقارى •• قالت بأحد اجنحتها أنهــا ليست جائعة •• سرنا معا على الشجر •• اشرت لها الى ثمرة فلم تأكلها •• سرنا معا فى السماء •• ارتفعنا قليلا ونحن نسير أو نطير •• لست ادرى •• الهواء خفيف وناعم •• وثمــة برودة منعشــة تهب من الشــمال •• ارتعشت اجنحتنا فجأة ••

قالت : أيكون الهواء قد مر على الثلوج قبل ان يجىء •

قلت : ذابت الثلوج منذ أيام ..

قالت : ولكننى ارتعش .. لا تتركنى أبدا ..

قلت : تعالى نلعب .. تعالى ندفىء الهـواء .

طرنا ، حركنا اجنحتنا ورحنا نتنفس فى الهواء حتى عاد اليه الدفء.

هبطنا فوق شجرة .. مال الغصن قليلا حين وقفنا فوقه .

نكست رأسى وتأملت الأرض ..

كنت أفكر فى ارتعاشـتنا معا .. أيكون حبنا يخبىء لنـا قدرا من الألم .. أيموت أحدنا قبل الآخر .. اعتصر قلبى شىء بارد ..

التفتت الى هامسـة ...

أريدك جوارى وأنا أموت ..

قلت : لم تبدأ الحياة بعد ..

قالت : لم يكن الموت محزنا قبل أن أعرفك ..

كانت الشمس فى طريقها الى الغروب .. وبدأ الافق مصطبغـا بدم يشـبه دم الحمام ، وجرى ذهنى للذبح ..

لا اريد أن اذبح الآن .. أريد ان اعيش طويلا ..

لم ابدأ حبى بعد يا رب ..

رحت أصلى لله صلاة طويلة .. وراحت تصلى هى الأخـرى .. ثم انكفأنا عائدين الى البيت ..

نامت هى قبلى .. وبقيت مستيقظا ثم لفنى النعاس ..

. . . .

. . . .

كنت نائما حين رأيت نفسى أطير وسط سماء بيضاء وأرض زرقاء ..

كنت أطير على ارتفاع شاهق ، أعظم من ارتفاع النسور ..

تحتى سحابة بيضـاء ..

تحتى طيلة الوقت ..

رأيت ناشا نائمة فوق السحابة ... حدقت فيها .

لم تكن نائمة ..

فوجئت انها ممزقة الريش والاجنحة والجسد ••
أردت ان أصرخ عليها فتحولت السحابة من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر •

شربت السحابة دمها وبدأت تمطر ••

نزل المطر دموعا فى حجم حبات العنب الأحمر ••

أردت ان أصرخ •• أو أبكى •• أو اهبط ••

فوجئت أن السحابة تتبدد •• وشاهدت ناشا ممزقة مفرقة على قمم الجبال •• رأيت نفسى ممزقا جوارها على قمم الجبال ••

كنت أحلم اننى أطير •• وارانى فى نفس الوقت ممزقا معها على الجبال ••

نصف جنبى الأيسر يلتصق بنصف جنبها الأيمن ••
كل نصف منا يكمل النصف الآخر ••
استيقظت فزعا فوجدتها تتنفس جوارى • حبيبة كما هى ••
سالمة كما هى •• صوت تنفسها يطير بعض ريشها عند الرقبة ••
ظللت أتقلب فترة ثم استغرقنى النعاس ••
تنفس الصبح أخيرا ••
نهضت خائر القوى بعد أحلام الأمس العجيبة ••
طرت قليلا لعلى انتعش •

طرت بغير أن أنظر حولى •• عقلى كله تحتله صورة واحدة •• صورتنا معا ممزقين على الجبال • توغلت فى الطيران •• مرت ساعات

فجأة رأيت نفسى قد ابتعدت كثيرا عن وطنى ومسكنى ••

اكتشفت أننى تائه •• ارتفعت الى أعلى •• حلقت عاليا فى الفضاء وبدأت أطير فى اتجاه دائرى محاولا ان التقط الحدود المميزة للمنطقة التى خرجت منها ••

لم التقط شيئا ••

كانت المنطقة التى أطير فيها منطقة جبلية شامخة ••

ارتفعت أكثر وأكثر •• أعتمدت على بصرى فلم التقط من المعالم التى اعرفها شـيئا •• حين يئست من نظرى بدأت احاول تحـديد الجهات عن طريق الطيران الساكن ، محاولا أثناء الطيران ان اتصـل بخطوط القوى المغناطيسية التىتمتد بين قطبى الأرض المغناطيسيين • لم أستطع أن أهتـدى ••

حين خذلنى البصر ، وخطوط القوى المغناطيسية •• لجأت فى تحديد الاتجاه للشمس •• كنت أريد ان أعـرف الزاوية بين اتجاه الشـمال والشمس •• لو عرفت الشـمال لحددت بقيـة الجهات واتجهت عائدا للشرق ••

استغرقنى تأمل الشمس •

فى اللحظة التى اكتشفت فيها الزاوية التى أبغيها •• اكتشفت فى نفس الوقت اننى أطير وسط جبال تتخذها النسور موطنا ••

هويت من الخوف وسط عش كبير غادره الأب والأم وتركا فيه نسرا طفلا •• كان النسر الطفل أكبر من حجمى مرة ونصـف ، ولكنه كان لا يستطيع الطيران بعد •• ربما ولد أول أمس •• احس بحركتى داخل عشـه فرفع رأسه الأصلع ومنقاره الحاد ونظر الى نظرة حاقدة ••

قلت له دون ان اتكلم : خفف من عداء نظرتك أيها الوحش الصغير ••

لم يحن الوقت بعـد على التهام الحمام •• لم أكد التقط انفاسى حتى القيت نفسى فى الفضاء مسرعا وطرت كان ألف نسر عجوز فى اعقابى •• طرت مسرعا وزدت سرعتى حتى وصلت الى مشارف أرضى ••

أسرعت نحو بيت ابراهيم •• هويت الى الأرض التقط أنفاسى

وقفت ناشـا عند رأسى .

قلت لاهثا : نجوت من موت محقق •

قالت : اهدأ الآن •

هـدأت ••

حركت جناحيهـا فتموج الهـواء حولى منعشـا ممتزجا برائحـة جسمها •• غادرنى التعب وأحسست بالعطش ••

ادركت ما اريده بغير ان أفصح ، وهرعت نحو صحن الميـــاه وملأت منقارها وعادت تسقينى • فمها فى فمى •• جناحها يلتصق بجناحى •• ذهب عطشى الى الميـــاه واشتعل عطشى اليها هى ••

حدثتها بذلك فقالت : تزوجنى ••

قلت : تزوجتك ••

قالت : لتبارك السماء زواجنا ••

قلت : وليباركه أعظم قلب فى الأرض ••

قالت : خليل الله ابراهيم •

قلت : نطير اليه معـــا ••

غادرنا فناء بيته الى بيته ذاته ••

وقفنا على سور واطىء يقيمه ليصلى خلفـــه •

حططنا أمام قدميه وقبلنا قدميـــه ••

ارتعش قلبانا بالحب •• ومد هو يديه الكريمتين وربت على رؤوسنا ••

أجفلت حبيبتى وطرنا ••

أجفلت حبيبتى مرة ثانية منى أنا •

وطرنا ••

احتفلنا بعرســـنا فى الفضـــاء ••

دعونا السحاب والنجوم المختبئة فى ضـــوء الشمس ودعونا الشمس والقمـــر المختبىء فى نورها •• دعونا خلائق اللـــه العظيمة كلها لحفل العرس •• هناء مصفى هو الهواء ••

هنـــاء خالص ••

• • • • • • • • • •

كنا أربعـــة من الحمام نعتبر بيت ابراهيم بيتنـــا •• ثم صرنا عشر حمـــامات •• ثم صرنا عشرين •• كان الحب يعبر عن نفســـه بآلاف الطرق •• فيزداد عدد الصغار ••

عرفنا الكثير عن خليل الله حين عشـــنا فى فناء بيته •

كان يصلى كثيرا ، ويدعو الناس كثيرا •• ويتأمل كثيرا ••

ولم نكن نستطيع كطير بسيط — فى نهاية الأمر — أن نعرف درجة قربه من الله •• أو عمق مشاعره نحو الخالق •• كل ما نعرفه أنه كان يخلو بنفسه كثيرا •• فى احدى خلواته ••

كان مستغرقا فى التفكير ثم رفع يديه يسأل الله ••

• • • • • • • • • • • • •

« واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى •

قال : أو لم تؤمن

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى

قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم ان الله عزيز حكيم » ••

• • • • • • • • • • • • •

كانت زوجتى ترقد جوار الصغار •• وكنت أجلس خارج عشنا حين امتدت الى يد سيدنا ابراهيم •• استسلمت لليد الطيبة •

فى يده الثانية سكين ••

اقترب السكين من عنقى ••

رحت اتأمل انعكاس شعاع الشمس على النصل الأزرق ••

آلاف الشموس تنتقل الى النصل وتولد فوقه •

اقترب النصل من رقبتى فازداد استسلامى •

صرخت زوجتى نصف صرخة ••

لم أحس بشىء •

غاض نصل السكين فى عنقى

آخر صوت سمعته كان صوت صرختها •• بعدها سمعت ابراهيم يدعونا اليه •

فى اللحظة التالية كنت أطير مندفعا نحو ابراهيم مع ثلاثة طيور أخرى ••

وصلنا الى أحضانه فارتمينا لاهثين مسرعين ملبين ••

سجد ابراهيم لله

لم اجدها فى العش •• وجدت اطفالنا جائعين وهى غائبة ••
ثرت ثورة كبرى وقررت تأديبها ••
اعرف اين اجدها ••
مكان جوار النهر كنا نلتقى فيه كثيرا ••
طرت نحو النهـــر ••
زوجتى تقف على الاغصان محدقة فى مياه النهر دون حراك •
وقفت على الغصن جوارها فلم تلتفت •• ماذا أصابها ياربى •• أتكون مريضـــه ••
قلت : ناشى •• لمـــاذا تقفين وحدك هنا ••
لم تلتفت •• انحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وقالت
ــ بدأ عقلى يهتز •• لم ازل اسمع صوته كما كان حيا ••
ادهشنى جوابها •• رفعت جناحى وضربتها به ضربة قوية ••
التفتت نحـــوى ••
لم تكد ترانى حتى صرخت مدهوشـــة ••
ــ يا الهى •• كيف •• لكنك ••
بدأت ترتعش •• استجمعت قواها وقالت فجأة
ــ كيف عدت من الموت يا حبيبى •• لقد ذبحك ابراهيم •
ذكرت الســكين فجأة •• القيت جناحى حولها لاهدىء من روعهـــا وســـألتها •
ــ حدثينى بكل شىء ••
ــ ذبحك ابراهيم آمامى •• مزقك قطعا مع ثلاث طيور أخرى ، وفرق أجزاءك على الجبال ••
قلت لها ــ لم يذبحنى ابراهيم •• لقد دعانى اليه فجئت ساعيا ••
قالت : بل ذبحك آمام عينى يا حبيبى ••
قلت : ولكننى حى •
قالت :لا أصدق انك حى •• آه يا حبيبى ••
انهارت على صدرى ••

أضـــاء عقلى فجأه بما حدث ••

حدثتنى ناشـــا ان ابراهيم ذبح أربعـــة من الطير ومزق أجســـادنا ووضع كل جزء منا على قمة جبل ثم عاد الى بيتـــه ••

صـــحبته ناشـــا فى رحلته حتى وقفت تبكى على نصـــف جســـدى ، وتركهـــا الخليل ابراهيم وانصرف •• بكت طويلا ثم طارت الى مكانها فوق الشـــجرة ••

مرت ساعات وفوجئت بى اقف جوارها ••

ظللنا أكثر من ساعة نتحدث •• كان انفعالنا هائلا •• كانت ناشـــا ترتعد وتقول

ــ ذبحك أمام عينى يا حبيبى •

وكنت أرتعش وأقول ــ بل دعانى اليه فلبيت ســـعيا •

حين اتفقنا اننى ذبحت ونهضت من الموت تساءلت

ــ كيف ؟ •

استلقت « كيف » أمامنا فى مياه النهر مثل سر لا قرار له ولا منقار له

قالت ناشـــا فجأة : الم يقل ابراهيم « رب أرنى كيف تحيى الموتى » •• لقـــد ترك ابراهيم الجبل وتركك ذبيحا فوقه ثم عاد •• استدعاك فأسرعت اليـــه ••

قلت لها : لمـــاذا •• ؟

قالت : ربما كان خليل الله يريد أن يـــرى يد القـــدرة الخالقة وهى تعمل فأسدل الستار على السر ولم ير غير النتيجة •

يا الهى •• لكن كيف ••

كيف ••

عادت كيف تتموج على صفحة الميـــاه ••

قلت •• اذا كان خليل الله لم يعرف كيف عدت أنا من الموت فكيف أعـــرف أنا ••

عدت اتساءل : أى قدرة هذه التى تستطيع ان تدعو الموتى فيسرعون

قالت ناشـــا : هى قدرة الحب

اتراك نسيت ان ابراهيم خليل الله ••

قبل ذلك كاد ابراهيم يذبح احب أبنائه اليه • من يملك القدرة على ذبح ابنه حبا فى الله ، يسـتطيع ان يدعو الطير الممزق من موته فيسرع ملتئما ساعيا اليـــه ••

هى قدرة الحب فى الحالتين ••

عدت أقول : ازداد حيرة ؟ ما هى الحكمة •

قالت ناشا : ليس عندى جواب يا قلبى ••

كل ما أعرفه يا حبيبى ان الله طمـــأن قلب ابراهيم وكان يبحث عن الطمأنينه •• وطمـــأن الله قلبك الذبيح بالوحدة •• وطمـــأن الله قلبى بعودتك الى بعد ان فقدتك •

لقد اعادك الله الى ، واعادنى اليك ، واعاد ابراهيم الى نفسه •• ماذا تريد أكثر من ذلك ••

قلت : كم يحب الله ابراهيم ••

قالت : كم يحبنى ويحبك •



ذئب يوسف



ليست حياة الذئاب مريحة .. أعترف بذلك ..

أن تكون ذئبا معناه أن تكون لك أنياب ومخالب . وليس فى الدنيا أحد يخلو من الأنياب والمخالب ، كل ما هنالك أن الابتسامة قد تخبىء وراءها أنيابا قاطعة ومخالب حادة ، واذن لا يحمل الناس عليها ، انما يحملون على الأنياب الصريحة .

أنا — كذئب — هدف لحملات مستمرة من البشر .. هدف لاضطهاد دائم ..

يقول البشر عن أسوئهم أخلاقا وأكثرهم توددا للنساء أنه ذئب . وهذه اهانة للذئاب . نحن كذئاب لا نهتم بالجنس غير شهر واحد من شهور السنة ، ولسوف تجد فينا استقرارا عاطفيا وزوجيا تحسدنا عليه آلاف الفصائل الحيوانية الأخرى .

لا أريد أن أطيل فى الحديث عن نفسى كذئب .

اننى أكتب هذه الأوراق وانا حانق بعض الشىء .. لست حانقا ولكننى مغيظ قليلا . أفتقد العدل تماما فى هذه الأرض وأكره أن أجد نفسى موضع ظلم واضح يستغل فيه الانسان رقيه وذكاءه لظلم الذئاب .

ذئب مظلوم أنا ..

ذئب يوسف .. هذا اسمى الذى اشتهرت به فى التاريخ . غير أننى أقسم أننى لم أر يوسف هذا فى حياتى قط . لا رأيته ولا أكلته ولا مزقت ثيابه ولا اقتربت منه . هى مأساة من بدايتها الى النهاية .

سقطت عتمة المساء على الصحراء •

انسحب اللون الأصفر مع انسحاب الشمس وتغطت الأرض بلونها الرمادى السابغ •• همد الناس وسكنت حركتهم ، ودبت فى الصحـــراء حياتها الليلية المثيرة • تحركت المخلوقات التى تبحث عن طعامها أثناء الليل وبدأت تســـعى •

خرجت استنشق الهواء أمام باب الكهف الذى أعيش فيه • ملأت صدرى بعبير المساء النقى ••

ما أروع أن يكون المرء ذئبا ثم يقف على باب كهفه ويعوى •

يستحيل على رعايا المملكة الحيوانية نسيان عواء الذئب •

ان صرخة طـــويلة وعميقـــة ترعش ظهرك وتدفع فيه قشعريرة باردة كالثلج •• نسمى هذا العواء فيما بيننا أغنية المساء • لا نعوى أثنـــاء النهار ، مملكتنا هى الليل ، ونحن نغنى عندما يهبط ظلام مملكتنا العظيمة•

لنا ستة أنواع من العواء لكل واحد منها معناه الخاص وتعبيره المميز• هذا العواء العميق الطويل الذى يبدأ مع سقوط الظلام هو أغنية المساء • نقوم فيه بتسبيح خالقنا وتمجيده • وهذا العواء الأجش القصير هو تعبير عن الوحدة واستدعاء الانثى ، وهنـــاك عواء المطـــاردة المروع الطويل الغاضب •• وهناك عواء يعنى أن صيدا ثمينا قد وقع •• وأجمل ما فى عوائنا أنه ينتشر فى الهواء فلا تعرف الضحية كم ذئبا يهرعون نحوها ، ولا تعرف من انتشار العواء حولها مصدر الخطر • وأى حصان أو وعل أو خروف يسمع عواءنا لابد أن يرتعش ويفقد قدرته على الفرار وتدركه لخمة عظيمة • عندئذ أنقض أنا •

ينطلق جسدى الرمادى فى الصحراء مثل قبضة من البرق وأضرب• هى ضربة واحدة بالمخالب •

بعدها يدفىء المعدة طعام ساخن مختلج لم تزل تدب فيه الروح • جربت مرة أن آكل طعاما طهاه أصحابه على النار وتركوه يبرد • فوجدته للاسف بلا مذاق ، وأدهشنى أن يرضى الانسان بهذا الطعام الطرى الذى أفسدته النار • أتحدث عن الطعام لأننى صائم •

أكلت منذ خمسة أيام نصف خروف سمين كان يتمشى بعيدا عن بقية

القطيع ..نأكل عادة مرة كل اسبوع ،ونعيش على ماأكلناه اسبوعا كاملا..
نصوم ستة أيام بغير احساس بالجوع . ثم نبدأ بحثنا عن الطعام

ظللت واقفا أمام باب الكهف فترة حتى سقط الليل تماما وظهر صديق الذئاب . ظهر القمر .. هذا القرص الفضى الشاحب الذى نرى على ضوئه أصغر فئران الجبال .. لم يكد القمر يظهر حتى رفعت رأسى وقدمت له تحية المساء .. عويت عواء طويلا ..

هى متعة أن نعوى فى ضوء القمر .
ينعكس ضوء القمر على أنيابى ويرتد الشعاع نحو أبعد الفرائس فيسجنها بالخوف فى مكانها ويسمرها بالرعب .

بعدها أنطلق وراء الشعاع .

رفعت فمى وتشممت الهواء .

أستطيع أن أميز بين أكثر من أربعين رائحة فى وقت واحـــد . تختلف رائحة الأرض عن رائحة الأعشاب عن رائحة الاشجار عن رائحة الوعول عن رائحة الزهور عن رائحة الزلط عن رائحة ...
ما هـــذا ...

أستطيع أن أميز الآن رائحة خراف . ان غباء الخراف الأساسى أنها لا تستطيع أن تخفى رائحتها . لا تستحم الخراف جيدا ولهذا تنتشر حولها فى الجو أريجا مميزا . بالنسبة لنا نحن الذئاب ... تشبه هذه الرائحة بطاقة دعوة توجه لطعام شهى.خرجت زوجتى من الكهف وتشممت الهواء واستقبلتها نفس الرائحة . التقت نظراتنا فقلت لها :

ـــ امكثى مع الأولاد ودعينى أذهب وحدى .

دخلت ذئبتى الكهف وأسرعت أهبط التل . لم أكن خارجا فى مهمة صيد، نحن لانخرج للصيد الا جماعات ، لاتقل عن خمسة ولا تزيد على اثنى عشر ذئبا . كنت خارجا فى مهمة استكشاف .. رفعت رأسى وأنا أجـــرى ورحت أتتبع ذرات الرائحة . استطيع أن أتتبع الرائحة أثناء الليل بنفس السهولة التى يتابع بها انسان مجرى نهر أثناء النهار ..
اقتربت الرائحة من أنفى فتباطأت وبدأت أتحرك بحذر .. على مبعدة خطوات تنتصب خيمة بيضاء يجلس أمامها عشرة رجال حول نار أوقدوها .. وعلى مبعدة خطوات منهم تنام مئات الخراف والنعاج والبقر ..

كان البرد شديدا فأدفأت فمى بذيلى ورحت أراقب •

لم تكن أعمار الرجال متساوية ، كان فيهم من يربى لحيته ،وكان فيهم من يطلق شعره ، ورجحت أنهم أصـــدقاء أو اخوة • أحسست من نظرة سريعة ألقيتها على وجوههم أنهم يدبرون شيئا •

الصقت صدرى بالأرض وكمنت ، رفعت أذنى وأنصت •

قال أحد الرجال العشرة وهو يدفىء يديه على النار •

ــ ينبغى أن نتخلص من يوسف •

أشتد البرد ، ومرت موجة من رياح الشمال المثلجة فارتعشت •

لست معتادا هــذه البرودة • ولدت وســط جو معتــدل فى مصر ،

وتربيت فيهامع أخشقيق يصغرنى بعام •وكنت أحب أخى حباعظيما، ولم أكن أخرج للصيد الا وهو معى •• ثم خرج أخى يوما ولم يعد•عبثا حاولت البحث عنه فى مصر • ضربت فى تيه المزارع والصــحارى أياما عديدة دون أن أعثر له على أثر • اختفت رائحته تماما ، وانكسر قلبى بعده فخرجت من مصر • عبرت الصحراء وجئت هذه البلاد الباردة • وجــدت نفسى غريبا وسط ذئاب من نوع مختلف • فراؤهـــا كان أطول من فرائى قليلا ، عشت بينها وتزوجت منهم ذئبة يبدو أنها كانت عانسا ، ويخيــل الى أن السر فى انصرافهم عنها كان شـــعرها القصير • كانت تشبهنى فى ذلك •• تزوجتها ففرحت بى أعظم الفرح •

قالت لى يوم زفافنا : من أين جئت • شعرك قصير ولا تشبه ذئاب هذه المنطقة •

قلت : جئت من مصر بحثا عن أخى الأصغر الذى خرج ولم يعــد• قالت ــ بحنان صادق ــ : سأكون زوجتك وأخاك الأصغر فلا تحزن •

هزتنى الى الأعماق كلمتها وتذكرت أخى الأصغر فعويت عواء طويلا حزينا متصلا •• ثم شغلتنى متاعب الحياة الزوجية وأهالت تراب النسيان مؤقتا علىذكرى الأخ الغائب••تزوجت فىالربيع •• بعد شهرين ونصف ولدت زوجتى ستة ذئاب صغيرة •• قبل أن تلد بحثنا عن مكان للاسرة القادمة • حفرت معها كهفا غائرا فى الأرض ثمعدلنا عن الحفر قبل اتمامه وعدنا نبحث عن مكان آخر ، أخيرا عثرنا على كهفنا الذى نعيش فيــه

الآن • وهو كهف بعيد يحتل قمة تل حجرى وسط الصحراء • كبر الأولاد وتغير لون عيونهم من الأزرق العميق الى اللون الرمادى المشرب بصفرة••

أدركت أن الأولاد قد بلغوا •• وبدأت أعلمهم الصيد •• ويبـــدو ان زوجتى عوضت حرمانها قبلى فى انجاب عديد من الأطفال • لا تكاد تحمل وتضع وتربى وترضع وتعلم الصيد حتى تعود الى الحمل والولادة والانجـــاب •

صرت رب أسرة كبيرة أجرى عليهـــا •• وأرهقنى ذلك وجعلنى دائم البحث عن طعام • تسللت الى أنفى رائحة شواء وتسللت معها رائحة خروف صغير حى لم ينم بعد ويسعل من البرد ••

عاد الرجال حول النار الى الحديث •

قـــالـــوا ••

« ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة•• ان أبانا لفى ضلال مبين • اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين » •

أدركت أن هناك مؤامرة لقتل انسان يتردد اسمه فى الحديث • لم أكن مهتما بحديثهم قدر اهتمامى بمعرفة المكان الذى سيذهبون اليه غدا ، أردت أن أعرف أين سيذهب الخروف الصغير المستيقظ الذى أميز رائحته وسط القطيع النائم •

عاد أحدهم يقول : « لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » •

لم يزل حديثهم يدور حول يوسف • سئمت من الحديث وأدهشنى أن يشغلهم يوسف لهذا الحد •• وعدت أستمع لحوارهم •

قال أحدهم : ماذا نقول لأبينا يعقوب حين يسألنا عن أخينا يوسف•

اعترف أننى صعقت •• اكتشفت أن يوسف هو أخوهم الأصغر •• كيف يدبرون قتله •• وأنا الذئب الذى خرج من مصر بحثا عن شقيقه الأصغر ولم يزل يعيش بقلب ملتاع بعد فقده • اجتذبنى الحديث المثـــير ، وأدهشتنى كمية الحقد فى حوارهم ، ونكأ حديثهم عن أخيهم جرحى وذكرنى بأخى ، وشاهدت الشيطان يجلس معهم وهم لا يرونه فزاد

تقززى منهم ، وكرهت رائحة الخروف الصغير ، وكرهت أن آكل من قطيعهم وقررت الانصراف •

لم أكد أستدير عائدا حتى عاد الحوار يجذبنى اليه ••

كانت رائحة الحوار مثيرة مثل رائحة قطيع كامل من الوعول والخراف•

قال أحدهم : نقول ليعقوب تاه يوسف منا •

قال الثانى : هذه لعبة مكشوفة • كيف يتوه منا والمفروض أنه معنا •

قال الثالث : نقول أكله الذئب •

أرهفت سمعى حين جاء ذكرى فى الحوار •

تصارع القوم بعد هذه الفكرة الظالمة ثم قالوا ••

ــ فكرة مثيرة • نقول أكله الذئب ونحن غافلون عنه •

قال أحدهم :لن يتركَكم يعقوبتأخذون يوسف• يحبه الرجل ولايطيق فراقه• •قالوا:سنحاول اقناع أبيه • سنقول له : الولد الصغير لا يأخذ حظه من اللعب ولا يحصل على كفايته من الشمس • وجهه مصفر فاتركه لنا ودعه يخرج معنا ليرتع ويلعب ••

عاد الحوار يدورحول نفسه ويلتف حول الثاروبحمل الى احساسامتزايدا بالذهول والدهشة• كانوا فريقين • فريق يريد قتل يوسف ، وفريقيقترح القاءه فى بئر •• ورغم انتصار الفريق الثانى فقد استقر الرأى الجماعى على الصاق التهمة بالذئب •• أى ذئب •• وراحوا جميعا يتحدثون عن هذا الذئب •• ماذا يقولون لأبيهم عنه • كيف يصفون له مشهد يوسف بعد أن أكله الذئب •• كيف يقنعون أباهمبأن الذئب أكله فعلا •• واقترح أحدهم أن يخلعوا قميص يوسف ويلوثوه بدماء شاة يذبحونها ثم يحملون القميص الى أبيهم ويقولون له هذا قميص ابنك الذى أكله الذئب وهــو يرتديه •

استمعت الى حوارهم وفهمت لماذا ساد الأرض هذا المخلوق المسمى بالانسان • أدركت لماذا يتناقص عدد الذئاب من الأرض ويزيد الناس •

فهمت أن أنياب الذئاب ومخالبها تبدو مثل قش هش الى جوار هذه الأنياب والمخالب المتمدينة المغلفة بالابتسام •

عاد الحوار بينهم وهم يأكلون •

قال أكبرهم : افترضوا أن أباكم لم يصدق قصة الذئب •

قال أكبرهم سنا : نصطاد ذئبا ونلطخه بدم الشاة التى سنلطخ بها قميص يوسف ونذهب بالذئب الى أبينا ونقول له هذا هو الذئب الآثم الذى التهـم يوسف • هاهـو دمه لم يـزل عالقا بجسـده ومخالبه ارتعشت فى مكانى من الغضب •• أى جرأة يملكها هذا النوع الانسانى •

عاد الخروف الصغير يتحرك وسط القطيع النائم ••

انصدت نفسى تماما عنه ، ولم يعد يعنينى الا أن أغادر المكان بسلام• اقتربت منى رائحة كلب •• ترك الكلب مكانه مع القطيع واقترب منهم لعل أحدا يلقى اليه بقطعة من اللحم أو العظام •ليست الكلاب مثلنا تأكل اللحم نيئا دافئا • يبدو أن الكلب استنشق رائحتى فبـدأ يزمجر ويزأر ووقف شعر جسده تهيئوا للقتال •• لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى بالاشتباك معه وقتله •• مزقنى حوارهم من الداخل واحتقرت أن اشتبك مع كلابهم وآثرت أن ابتعد عن هذا الجو بأقصى سرعة •

نهضت من مكانى وعويت ••

لم أكد أبدأ العواء الغاضب اليائس الممزق وأنهيه حتى كنت هنـاك عند الطرف الثانى من الصحراء •

عدوت مثل ذئب يفر من ألف انسان •

دخلت على زوجتى الكهف فاستيقظت على الفور •• نومها خفيف •

سألتنى هامسة : لونك مخطوف ووجهك متغير •

قلت وانا ألهث : اللعنة •

قالت : هل أخطأت رائحة الخراف ؟

قلت ـ اللعنـة

قالت ـ لم أرك غاضبا هكذا من قبل • ماذا حدث • هـل حـاول اصطيادك أحـد •

قلت ـ حدث ماهو ألعن •

قالت ـ لا أظن أن هناك ألعن من اصطيادك •

قلت ـ بل هناك فاصمتى ودعينى أفكر •

قالت ـ سأل عنك أصغر أبنائك فقلت له ان بابا قد خرج للبحث عن صيد ، تعرف زوجتى اننى ضعيف أمام أصغر أبنائى . لم تكد تذكره حتى قررت ايقاظه واللعب معه . ذهبت اليه فرأيته ينام على ظهره وقد رفع سيقانه لاعلى .

مددت فمى ومثلت اننى أعضه فى بطنه فاستيقظ ضاحكا وأمسك فمى بأقدامه الأربعة وراح يعضنى هو الآخر .. تقلب على جنبه فعدت ألاعبه حتى استيقظ أخوته . ورأيت أننى يجب أن أوزع عليهم اللعب فرحت أداعبهم وأعابثهم حتى أصدرت زوجتى بفمها صوتا معنـاه :

ـ حان وقت النعاس .

تركت ذئابى الصغيرة على الفور .. واحتضنت الذئاب نفسها ، وادفأت روحها بالتصاقها واستسلمت للنوم .

خرجت زوجتى من الكهف ووقفت على بابه . أدركت أنها تريد أن تخلو بى .

خرجت وراءها . سألتنى بصوت رقيق .

ـ لم تحدثنى عن رحلتك .

كان غضبى قد هدأ .. قلت لها :

ـ كانت رحلة سوداء . ليتنى لم أخرج .

سألت مندهشة ـ لماذا .

قلت ـ ذهبت أبحث عن صيد فوجدتهم يبحثون عنى .

قالت ـ عنك أنت ..

قلت ـ نعـم .

قالت ـ لماذا يبحثون عنك .

قلت ـ لاننى أكلت يوسف .

قالت ـ من يكون يوسف .

قلت ـ انسان لم أره قط .. يريد اخوته القاءه فى البئر واتهامى بأننى أكلتـه .

قالت ـ أنت لا تأكل اللحم الآدمى .. كيف يتهمونك .

قلت ــ مكررا كلامى ــ المصيبة أن يوسف شقيقهم ••

قالت ذئبتى ــ غريب •• لولا معرفتى بأخلاقك لقلت انك أكلت شجرة من أشجار جوز الطيب ففقدت وعيك •

قلت ــ لست فاقد الوعى •• أنا حزين •• تذكرت أخى الغائب وانفطر قلبى •

ساد الصمت لحظة ، ورأيتنى أقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكدت أطير

قالت ذئبتى : ما هذا ؟

قلت : هذا شعر •

قالت : لم أكن أعرف انك تقول الشعر •

قلت : أقول ما أقول من حرقتى ، حين طفح الكيل •

قالت : مواهبك عديدة وحظك قليل يا حبيبى •

قلت : غدا ينسبون هذا الكلام لاحد شعراء بنى الانسان •

قالت ــ الحمد لله الذى خلقنا ذئابا •

قلت ــ هل أكل الأولاد •

قالت ــ أكلوا فلا تقلق •

نكست رأسى وتذكرت أخى وأغرقتنى موجة من الحزن • فوجئت أن ذئبتى تمد وجهها وتضعه جوار رقبتى •

كانت تقبلنى •

قالت بحنان صادق ــ ليتنى ضعت بدلا من أخيك •

قلت ــ حزنى عميق فلا تزيدى عمقه •

قالت ــ ليتنى ذهبت فداءه وفداء لحظة حزنك •

قلت وأنا أقبلها ــ لاتقولى ذلك ••

قاطعتنى بقبلة ثانية • وتوسط القمر عرشه فى السماء •• وخلت الدنيا من الأحزان والالام والمتاعب •• لم يعد هناك غيرها وغيرى فى الكون ••

دفنت أحزانى فى أحضانها ومرت الليلة •

• • • • • • • • • •

عاودت حياتى الطبيعية بعد ذلك ••

تنام الاسرة معظم النهار ، ثم تستيقظ مع العصر •• تطعم ذئبتى أطفالنا من لبن ثديها طالما أنهم صغار • فاذا كبروا قليلا أطعمتهم من اللحم الذى تأكله بعد هضمه نصف هضم فى معدتها ، فاذا كبروا أكثر خرجوا فى رحلات الصيد لمعرفة أسرار الذئاب ومهنتهم • فاذا بلغوا أشدهم انطلقوا فى جماعات جديدة للصيد ، بعدها ينطلق كل واحد منهم لتكوين أسرة وانجاب أطفال ، ثم تنضم الاسر جميعا وتخرج للصيد ••

جاء موعد خروجنا للصيد ••

اتفقنا على اللقاء عند باب كهفى ، بدأت وفود الذئاب تجىء • تحيتنا أن نهز ذيلنا ونرفعه عاليا • انتظمنا عشرة ذئاب ناضجة وذئبين صغيرين يخرجان للمرة الاولى •

راقبت الذئبين الصغيرين •

كانا منفعلين انفعالا عظيما • يتحركان فى كل اتجاه ، ويرقصان ويتواثبان ويجريان هنا وهناك • نظرت اليهما وتذكرت طفولتى فى مصر • كنت ألعب هكذا فى جبال مصر وصحرائها •• مع أخى الأصغر •• تضيع من ذاكرة الذئب كل لحظات حياته وتبقى رجفة الخروج للصيد أول مرة •• تبقى حية طرية فى ذاكرته • لاينسى الذئب توهجه الأول وهو يخرج للصيد ويتعلم عواء المطاردة • أذكر أول مرة خرجت فيها مع أخى أنه قال لى همسا :

ـــ أنا خائف قليلا ••

سألته ـــ لماذا •• هل أنت كلب لتخاف •

انفجرت ضحكته وقفـــز نحوى واطبق بأسنانه على رقبتى وسأل :

ـــ تحب أن أريك كم أنا خائف ؟ •

وضحكنا يومها كثيرا ، وتواثبنا مثل هذين الذئبين •

كان يوما لا ينسى •

اجتمع شملنا أخيرا وبدأنا المفاوضات السريعة •

فى بداية الصيد نناقش الأهــداف المحتملة ونختار من بينها أكثر الأهداف صعوبة وتحديا •

قال أحدنا ــ هناك مجموعة من الوعول التى ترعى هناك عند الافق•

قال ذئب آخــر ــ عثرت على مستعمرة للفئــران الســمينة • لا يحرســها أحد •

قال ذئب ثالث ــ فى اتجاه الغرب رجل يربى ســتة من الخيول يحرســها كلبــان •

نظرت الى العيون فقلت :

ــ فى اتجاه الشمال خيمة يعيش فيها عشرة رجال يخرجون للرعى • معهم قطيع من الخراف والنعاج والبقر • تحرسهم ســتة كلاب • والرجال مسلحون جيــدا •

كان الهدف الذى حددته هو أصعب الأهداف • واستقر الرأى عليه•

واتفقنا أن نهجم فى منتصف الليل ••

وانحدرنا مع المساء نحو الصحراء ••

سرت فى المقدمة ، تجرى الى جوارى ذئبتى ، وتتبعنا القافلة الطويلة• يتواثب فى نهايتها ذئبان صغيران •

فقدت الأرض لونها الاصفر ونحن نجرى وســط حقول خضراء تسقط عليها بداية المساء • ثم عاد للارض لونها الرمادى ونحن نعبر منطقة جبلية •• ثم جاء اللون الرصاصى واقتربت رائحة اخوة يوسف •• توقفت أثناء الجرى فجأةفتوقفت القافلة كلها وراحت ترهف السمع •

سألتنى زوجتى هامسة :

ـ لماذا توقفت •

قلت هامسا ـ أشعر بالتشاؤم •• وأحس أننى لن أراك بعد الليلة•

ابتسمت عيناها ابتسامة واسـعة مشجعة فعدت أعدو نحو الهدف•

بدأنا زحفنا الحذر حين اقتربنا من الخيمة •

كان الأخوة العشرة ينامون فى سكون خارج الخيمة ، ولم تكن هناك كلاب • كيف تركـوا الماشـية بغير حراسة اذن •• ادهشنى ذلك وأثار ريبتى •

قلت للذئاب ـ انتبهوا جيدا فاننى أظن أن هؤلاء النائمين ليسـوا نـائمـين •

قالت زوجتى ـ تنتابك الهواجس اليوم يا حبيبى •

قلت ـ ربما كانت هناك فخاخ منصوبة ،لن نخسر شيئا من الحذر •

كان الذئبان الصغيران الطائشان قد تقدما أكثر مما ينبغى نحـو الماشية • وأحست الماشـية بالخطر فاستيقظت فزعة وبدأت تخـور وتضـطرب •

جريت أحضر الذئبين الصغيرين فلم الزم الحذر ؛ نصحت قـومى به ونسيته • لم أدر دورة كاملة وانما سرت فى خط مسـتقيم • لم أكد أتقدم قليلا حتى انطبق على قدمى الخلفية فخ قوى •

بكيت حريتى فى عواء طويل وانتشرت شرارة الكهرباء من فمى لفم الذئاب فتمزق الهواء بصوت العواء المعول الصارخ •

وحدث كل شىء بعد ذلك بسرعة •

قفز الرجال من تحت أغطيتهم الصوفية وأطلقوا سهامهم على الذئاب فانطلقت مبتعدة تعـوى ••

وأقبل الرجال العشرة نحوى بالعصى والحبال • وانهالت على جسدى العصى وألقيت على الحبال وراحت تلتف حولى حتى سكنت حركتى تماما •

أخيرا وقعت فى الاسر •• وطافت بذهنى صورة أخى الغائب •

أدركت كيف ضاع •• أضيع مثلك يا أخى فلا تحزن ••

عويت عواء ضعيفا يتضمن الأمر بابتعاد أسرتى عن المكان وتركى للأقـــدار •

وردت على زوجتى بعواء ممزق صارخ يتلوى •• افهمتنى فى عوائها انها قادمة لانقاذى ، وليكن ما يكون •• وعويت عليها أن تنصرف لتعنى بالأولاد •• أوصيتها بأصغر ذئابى كثيرا ، وابتلعت الصحراء أصـــداء العواء •• عاد الصمت الى الرمال فوجدنى ملقى على الأرض مقيـــدا بالحبـــــال •

رفعت رأسى وتأملت من آسرنى •• هم أخوة يوسف بغير جدال • اطمأنوا لاستسلامى وربطوا أقدامى فى فرع قوى من فروع الأشجار وحملونى مدلى منكس الرأس نحو قريتهم •

قال أحدهم بفرح : سنقول ليعقوب هذا هو الذئب الذى أكل يوسف•

ارتفعت أناتى حزينة شاكية فضحك الرجال وقالوا :

ــ كأن الذئب يفهم ما نقول •

توقفوا فجأة وقالوا : كيف نثبت له أن هذا هو الذئب القاتل •

تشاوروا قليلا ثم ذبحوا أحد الخراف ولوثوا مخـــالبى بدمه ، كمـــا لوثوا فمى بدمه • وكان فمى جريحا فأضيف اليه دم جديد لاثبات المهزلة •• سرنا طويلا حتى شارفنا قرية صغيرة تنتشر حولها الرمال الصفراء والأراضى المزروعة ، أحسست بالعطش ونحن نسير حـــذاء نهر فلسطين •• دخلنا قرية تضيئها مصابيح الزيت •• قلت لنفسى وأنا استنشق رائحة الزيت ، هذا زيت زيتون • ضـــاق الطـــريق وتعرج وتصاعدت رائحة الطعام المطهو فتزايد احساسى بالبؤس •

تصايح أخوة يوسف حين وصلوا لبيت أبيض تحيطه حديقة مشجرة •• حفظت الطريق جيدا خلال الرحلة الفاجعة •• من يدرى ••

نقر الاخوة الباب فانفتح عن ثلاث نساء ••

تصايحت النساء فزعات حين رأيننى وهرعن الى الداخل • دخلنا البيت •

ملأ قلبى احساس غامض بالسلام •• بيت من هذا ياربى •

ألقانى الاخوة على الأرض أمام شيخ أبيض اللحية مهيب الملامح •• ضربتنى الأرض بقسوة فعدت أئن •

قال أحد الأخوة للشيخ الجليل :

— هذا هو الذئب الذى يحل بغنمنا ويفترسها •
قال أحدهم : هو نفسه الذئب الذى أكل يوسف • اصطدناه اليوم •

أكل منا يوسف أول أمس وعاد الينا اليوم ••

قال صوت احدى النساء : انظروا دماء يوسف على مخالبه وفمه •• اقتلوه الآن قبل أن يفيق من أغمائه •

كنت أتأمل عينى الشيخ واحدق فى صفائهما واسبح •• هذا هو يعقوب اذن •• أدركت انه نبى من أنبياء الله • ملأنى احساس عميق بالراحة حين قال الشيخ لأولاده •

— دعوا الذئب لى • وانصرفوا •

قال أحد الأخوة وهو ينسحب : احذره يا أبى فانه ذئب غادر •

خلت الحجرة من غيرنا •• وبقينا معا يعقوب وأنا • اقترب منى يعقوب وفك وثاقى وأطلقنى حرا •• وقفت أمامه وحنيت رأسى ورفعت ذيلى أحييه •

قال يعقوب وهو يخرج قميصا ملوثا بالدم •

— هذا قميص يوسف أيها الذئب •

فاضت عينا الشيخ وهو يرمى الى قميص يوسف •

— حدثونى انك أكلته وألقوا الى قميصه الملطخ بالدم •

شممت القميص وتأملت نسيجه فوجدته سليما بغير خدش واحد •
رفعت عينى الى الشيخ وقالت نظراتى •

ــ أيها النبى الكريم •• كل الذئاب بريئة من دم ابنك •

قال الشيخ ــ أعرف أيها الذئب •• أعرف ذلك • كيف يفترس الذئب يوسف ويظل قميصه سليما • هو خطئى أنا أيها الذئب •

قلت حين أراد أخوته أن يصحبوه : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون •• قدمت خوف منك على حفظ الله له ورعايته فاصابنى ماترى •• عاقبنى الله تعالى ، وضاع منى يوسف وجاءوا بك بدلا منه •

قلت بعينى ــ لا أفهم يا سيدى ما تقول •• هذا كلام كبير •

قال يعقوب ــ ادن منى أيها الذئب •

دنوت منه ••

عاد يعقوب ينحنى ليلتقط قميص يوسف وهو يقول : ادن منى أيها الذئب ••

رحت ادنو منــه حتى الصقت خدى بخده وبكيت مثلما بكى •• مــد يعقوب يده وربت بهــا على رأسى فبرئت جــراحى جميعا •• ســألنى بصوته العميق الحزين •

ــ أين ذهبوا بيوسف • وكيف عثروا عليك •

قلت له : لست أعرف ماذا فعلــوا بيوسف • ســمعتهم يتحدثون عن القائه فى بئر • لكننى أقسم لك أيها النبى أننى ذئب غريب جاء من نواحى مصر فى طلب أخ له خرج ولم يعد • اصطادنى أولادك وأوثقونى وجاءوا بى اليك • نحن لانأكل لحم البشر أيها النبى •• حرمت علينا دماء الأنبياء أيضا • ليتنى لم أخرج من مصر بحثا عن أخى •

قال يعقوب وهو يضم قميص يوسف الى صدره •

خرج الذئب يبحث عن أخيه ، وضيع أبنائى أخاهم يوسف •

قلت : أيها النبى الكريم •• أطلق حــريتى لأعود الى مصر • لــن أعيش فى أرض يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش •

عاد يعقوب يربت بيده على رأسى •• ثم نهض وفتح غرفته لى •

انقض أبناؤه على بالسهام والحراب والكلاب وهم يصرخون •

ـ أطلق أبونا الوحش ••

قال يعقوب : **« بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »** •

قفزت خارج البيت وانطلقت أجرى •

جريت بنصف قوتى وتركت نصفها الثانى بقعا من الدماء على الأرض •

أصبت أكثر من اصابة قاتلة لكننى أجرى بعيدا عن القرية •

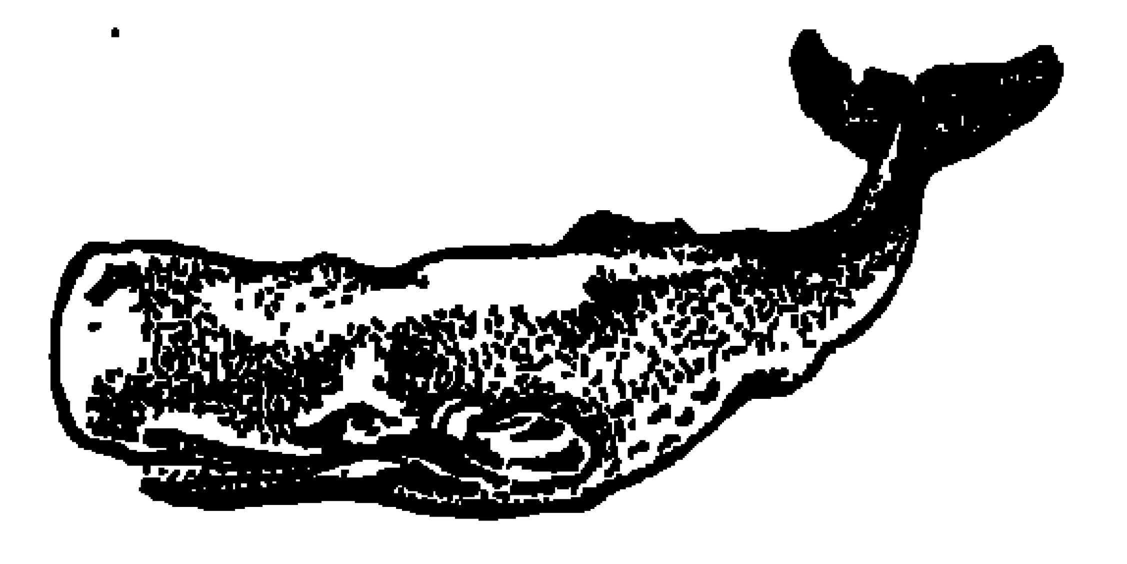
لا أريد أن أموت هنا ••

خرجت الى الصحراء العريضة واذا بالارض تدور فجأة •• دارت الأرض حتى وقفت بكل ثقلها على رأسى ••

واشتد دوران الارض •



حوت يونس



استدرت راسما حرف النون فى المياه .

قوست جسدى وضربت المحيط بذيلى فارتج الهواء منفجرا كهزيم الرعد ، واندفع من المياه شلال لأعلى بعد ضربة الذيل .

والأصل أن ينحدر الشلال الى أسفل ..

كل شىء على الأرض ينحدر الى أسفل .. تتنفس الخلائق وسقوط الثمار وانهيار الشلالات ..

وفى البحر يتنفس الحوت العظيم لأعلى ، ويصنع من المياه شلالات لأعلى ..

استبدل الحوت بيديه القديمتين نافورته الأمامية وضربات ذيله الخلفى .. وكل شلال يندفع لأعلى من الحوت يد مائية تمتد لخالق المياه بالتسبيح .

ضربت الموج بذيلى ضربة ثانية ، ورحت أتسمع صوت الانفجار الثانى والريح تحمله ليذوب مع صوت الانفجار الأول عند الأفق .

أعرف أن لطمتى للمياه تسمع على امتداد أميال وتصيب الآلاف من حيوان البحر وأسماكه بالرعب ، غير أن هذا شأن القوة حين ترتعد فرقا أمام خالق القوة .

أعتى جبابرة البحر فى البحر أنا .. وأضعف من مياه منسكبة أمام الله .. أعرف أننى وحش المياه المتوج على الموج .. صنعت تاجى من زبد الصدق الأبيض وأعشاب الحقيقة الخضراء ، وليس كالصدق والحقيقة قوة حين

نتحدث عن القوة •• توجتنى على المياه قدرتى على الانطواء الذاتى في قلب الأبعاد الزرقاء التى لا قلب لها •• ومنحتنى هذه القـدرة ، قدرة أجهل كنهها وان كان كيانى يسجد لها ••

حركت ذيلى وانطلقت •

كل مياه المحيطات والبحار حجرتى الخاصة ، واللون الأزرق الممتد تحتى أوراق أخط فيها قصتى ، وليس مثل الكتابة على الماء أو السير فوقه آية ، لايسير على الماء غير الأنبياء ، لا يسير على الماء غير الصدق، اما البر فكم من الأكاذيب الترابية تدب فوقه •• أيضا تبقى الكتابة على الحجر ندوبا ظاهرة لكل من ينظر ، اما الكتابة على الماء فيلتئم عليها الماء ويغوص السر في البحر دون أن يخلع أقنعته •• وبذلك يبقى للسر نصيبه من اسمه في المياه •• وهنا تكمن عظمة المياه المستعارة ••

قلت عظمة المياه المستعارة •

وكل خلائق الكون العظيمة تستجدى من بهاء العظمة السرمدية •• تدرك خلائق الكون العظيمة في قرارة نفسها انها صائرة الى الموت • كلها باستثناء الانســان •

وحده الذى ينسى •• وحده الذى يتأله •• وحده الذى يدور بغرور الخلود رأسه •• لو كان فمى الوحشى يستطيع أن يضحك هازئا لفعلت•

لا أضحك •• لاأعرف غير تقطيب الجد المتجهم ••

لا أحب الانسان •• وكل الحيتان لا تحب الانسان ••

عداء قديم له قصة ستجىء في موضعها ••• عفوا ••

يفور دمى حين أذكر الانسان فأهوى في المياه لأبعد الاعماق ثم أضرب المحيط بذيلى وأندفع خارجا •

هاهو سطح البحر •

أقفز من السطح لأعلى نحو السماء • قفزة جبارة مثلى •

هذا سجود الحيتان • يهوى الناس ســجودا نحو الأرض وتهوى الحيتان سجودا نحو السماء •• أليست أرضنا سماء المجرة •

أسبح في بحار الشمال حيث لا تطـرف عين الشمس ولا تغرب • أرى الشمس من مكانى قرصا أصفر سقط في مياه خضراء ••

هذا العرى المتألق للشمس ، المنطفىء فى المياه ، يوحى بالوحدة .
وليس كالوحدة رفيق للعظماء .
وليس فى عظمة حوت العنبر أحد .
ومن بين كل حيتان العنبر السابحة فى المياه ، وقع اختيار القــدرة الخالقة على شخصى لابتلاع يونس .
لم أكن أعرف .. عرفت بعد التقامه أنه نبى ..
كانت أقسى تجربة مرت فى حياتى المائية المديدة .. أعترف بذلك ..
ليس هناك حوت يتجمع العرق على جبينه حبات ..
ليس هناك حوت يبكى رقة وحبا .
تجمع العرق على جبينى وبكيت ..
كنت أحاذر أن يرانى وحش من وحوش المحيطات وأنا أبكى .. ان هيبتى فى المياه عرش قديم لم يخدش . ولم أكن لاتركه يخدش .
ان جسدى الذى يزيد طوله عن طول جزيرة متوسطة ، ووزنى الذى يصل الى مائة ألف صخرة .. واندفاعاتى فى أعماق المياه بعد ذلك .. هذا كله يكفى لجعل أخطر أسماك القرش الوحشية تندفع هاربة حتى تحطم جسدها فى الصخور خوفا ورعبا .
ورغم ذلك بكيت ..
لاأريد أن أقفز الى النهاية ..
هزنى ما حدث الى حد الانفعال فمرضت ..
بدأت أمعائى تصنع العنبر . لا تصنع الحيتان العنبر الا اذا مرضت وأشرفت على الهلاك ..
رأسى يدور وذيلى يتحرك نصف دورة فاندفع .
على المــاء أكتب .
المياه تلتئم على السر فأكتب .
. . . .
حين كان البحر طفلا لم يتجعد جبينه بملايين السنين والامواج كان أجدادنا يعيشون على الأرض ..
فى مكان ما من جسدى الهائل .

فى نقطة ما من عقلى المخبوء ..

فى نقطة تختفى وراء عرش من الزيت .. وتقع بين اللحم والدم والاعصاب ترقد صورة قديمة ..

أرض رمادية مضببة .

يتصاعد من البراكين فيها بخار أرجوانى يختلط باللون الأصفر .

تدب على التراب أقدام الديناصورات وأقدام أجدادنا ..

كان أجدادنا وحوشا أعظم حجما من الديناصورات .. وكان الديناصور قد بدأ ينقرض من الأرض ..

كان حجمه هائلا .. وعقله صغيرا .. ورغباته كثيرة .. ولم يكن قادرا على التكيف وسط ظروف الأرض المتغيرة ..

وكان أجدادنا يقاسون من نفس المأساة ..

كانت الأرض تهيأ لاستقبال جنس جديد يسمونه الانسان .. وكان هذا الجنس غير معروف لنا على وجه التحديد .. كنا نسمع عنه كلمات غامضة ومثيرة .. وكانت الملائكة تتحدث عنه باحترام وحب ، وكان اقتراب هبوط هذا الجنس على الأرض يحمل نذيرا بهول غريب لكائنات الأرض الوحشية .. لاأحد يدرى ماذا أصاب وحوش الأرض حتى اشتعلت بغضب هائل واندفعت تقتتل وتسفك الدماء .

لم يعد باقيا من الوحوش البائدة غير جنس آباء الحيتان وأمهاته . كنا أعظم الوحوش حجما فكسبنا المعركة ..

امتلأت الأرض بالدماء والخرائب ..وهرع أجدادنا الى البحر جماعات جماعات .. نظروا الى الأرض وأدركوا أن حياتهم فيها لم تعد ممكنة .. خلت الأرض من الوحوش المنافسة ، خلت من الطعام .

وبدأ أسلافنا يقفزون فى الميـاه .

لم يكن أمامنا غير حل من اثنين .

أن نبقى على الأرض ونهلك جوعا . أو نقفز فى المـاء وننجو ..

وقفزت آلاف من أسلافنا فى المياه .. كانت لنا أيد واقدام ورؤوس وانـــوف .

يتصور الناس أن الحوت سمكة .. ليس كهذا القول اهانة لجنس الحيتان .. دم الأسماك بارد ودمنا حار ..

نحن حيوانات ثديية عشنا على البر فى عصور ما قبل التاريخ ثم لجأنا الى البحر لنخلىَ الأرض للانسان .

عفوا .. دمى يفور كلما ذكرت الانسان .. أغوص فى البحر حانقا مندفعا .. قيل لاسلافى وهم يقفزون فى البحار :

ــ طوبى لك أيتها الكائنات العظيمة ..

تصيرون ملوكا للبحر لا ينازعكم عليه غير الانسان ، يطاردكم أحياء وأمواتا . بعد موتكم تصيرون عطرا لعدوكم ، وزيتا لقناديله ، وطعاما لأطفاله ، ودواء لأمراضه .

لم يكن هبوطنا فى البحر هبوط اهانة . على العكس من ذلك ..
كان هبوط كرامة ... تماما مثل هبوط الانسان الى الأرض .

ان حجم الميـــاه أكبر من حجم الأرض أربع مرات .. وفرصتنا فى النمو أكبر من فرصتنا على الأرض أربع مرات .. وطعامنا أكثر أربعة أضعاف .. غير اننا نهبط الى البحر وقد انغرس فى أعماقنا الصراع الوحشى ضد الانسان .. وشىء من الدهشة فى نفس الوقت .

كان هذا منذ ملايين الملايين من السنين .

خلالها لم تعد لنا حاجة لايدينا .. تحورت أقدامنا ورؤوسنا وانوفنا .. صار وحوش الأرض القدامى هم حيتان البحر الآن ..

حدثتنى خلية فى جسد أمى بكل هذه الاسرار قبل أن أولد .
لست أذكر أين ولدت .. أذكر وجه أبى ..

كان رهيبا بوجهه الأبيض وحردبته العالية وذيله الجبّار .. طوله ٩٠ مترا ونصفَ متر ، أمى هى زوجته الثالثة .. لا يزيد طولهاعلى ٢٥ مترا ، حسناء رشيقة ، لونها يميل الى الرمادى الفاتح .. كانت أما مثالية . لم أر أمى تبتسم أبدا .. لم أر أبى يضحك أبدا ..

سألت : لمـــاذا لا تبتسم الحيتان ؟

قال أبى : اخرس .. كيف تبتسم أعتى وحوش البحر ..

نظر أبى لأمى نظرة حانقة بطرف عينه وقال .

ــ جاء ابنك رقيق المشاعر مثلكِ فعليك الغضب ..

أخذتنى أمى الى البحر مبتعدة عن أبى وهمست لى .

ــ انت وحش يا حبيبى فلا تخذل ماما وبابا .

كانت طفولتى بهيجة .. لولا نظرات أبى وتعليقاته الوحشية . حين ولدت كان طولى يزيد قليلا على عشرة أمتار ونصف متر . دار أبى حولى متفحصا وقال لأمى : لا بأس بطوله .. يعجبنى لونه الأبيض .. أرجو ان يأخذ طباع أبيــه .

قال تعليقاته ومضى يغوص فى المياه ..

كانت طباع أبى معروفة فى المحيطات كلها . اشتهر بالبطش والقوة والسرعة ، وهى ثلاث صفات لابد من توافرها فى وحوش البحر وسادته.

. ولقد أدركت حين كبرت ان أبى كان سيدا على البحار كلها ..

بعد ستة عشر شهرا قضيتها فى رحم الام ، رضعت ستة أشهر .

.. لم أر أبى فيها غير مرتين .. وأعترف أنى أحببت امى طوال اشهر الرضاعة أكثر مما أحببت أبى .. كانت حانية رقيقة ، ولم أرها غاضبة غير مرة واحدة حين هاجمنى سرب من أسماك القرش الصغيرة .. تصورت فى البداية انها جاءت تلعب معى ثم اكتشفت انها تهاجمنى وتعضنى .. كنت طفلا ضعيفا طوله عشرة أمتــار .. صرخت أنادى أمى فانشــق المحيط عنها وقد تحول ذيلها الى مروحة جبارة تضرب ضربات خرســاء عمياء فى كل اتجاه .. وادهشنى ان ضربات ذيلها كانت تمزق أجســاد أسماك القرش فتولى هاربة . . لم يستطع أحدها ان ينال منى غير قطعة من لحم الذيل .. صارت فيما بعد علامة مميزة .. واندلع حقدى عميقــا على أسماك القرش .. واشتهرت حين كبرت بأننى ولوع بالتهام العشرات منها وسداد دينها القديم .. ولقد أعطيت أسماك القرش فى مقابل لحظة الخوف الوحيدة فى طفولتى ... ليالى من الرعب الأسود المتشابك وسنوات من الخوف المتصل .

ــ أقبل حوت العنبر الابيض ، ذو الذيل المشوه ..

هكذا كانت حيوانات البحر تعلن عن مقدمى ..

ساعتئذ تولى الأسماك والوحوش هاربة فأمضى فى طــريق أخــلاه الخوف المخوف ذاته .

انهيت فترة رضاعتى وجاء أبى •

سأل أمى مشيرا بذيله الى : ماذا حدث لذيله •

قالت مزهوة : الحوت سرأبيه •• تركتــه وحده فهــاجمه سرب من أسماك القرش ••

قال أبى : عظيم •• كيف تصرف الوحش الصغير •

قالت أمى ـ وهى تنظر نحوى خائفة ـ تصرف الوحش الصغير كأى وحش صغير ••

قال أبى وهو يضرب المــاء بذيله : حمدا لله •• حمدا لله •• اتبعنى أيها الوحش •• انتهت طفولتك وغدا تبدأ دروسك •

ادهشنى ان أبى صــدق اننى تصرفت كوحش • مــاذا لو علم اننى صرخت أستنجد بأمى ، ما أعظم دهاء الأناث وكيــدهن •• كانت أمى تحمينى بكلمتها من بطش أبى •• وفيما بعد حدثتنى انه لو علم ما حدث لقتلنى ضربا بذيله ••

قتل قبل ذلك ثلاثة حيتان ضعيفة ولدتها له زوجاته الأخريات وهــو يقــول :

ـ أفضل للوحوش أن تموت مستورة من أن تعيش خائبة •

قلت اننى أحببت أمى أكثر من أبى • استمرت فترة الحب ستة أشهر هى فترة الرضاعة • بعدها أحببت أبى عامين هما فترة المدرسة •• بعدها غاص حبى لأمى فى قرار المحيط ، وسقط حبى لأبى فى زبد الموج، وصرت وحشا حقيقيا حين كففت عن الحب ••

بعدها ، لم يعد هناك من يستطيع ان يتصدى لى أو يسبح أمامى أو يسمع عنى ولا يرتجف • كنت اعتبر ان من يرانى ولا يتخبط رعبا هو مخلوق يتوقح على ، وتلك جريمة تستوجب العقاب السريع •

وهكذا تسبقنى سرعتى نحو المتحدى فأواجهه •• ويتحرك ذيلى نحوه فأحطمه ، وينفتح فمى أمامه فيغيب فى جوفى ••

ثلاث حركات موسيقية سريعة تتم قبل ان تدرك الضحية ما حدث •• وأحيانا افتح فمى وأنطلق •• بعد ان أمر تنطبق المياه على الصمت •

يصير جوفى مقبرة للمتحدى قبل ان يموت •

ألتهمه صاحيا ليموت على مهل فى بطنى ••

بعدها أقفز لأعلى من المياه •• شاكرا أنعم الاله •• مرتعشا من خشيته طالبا رضاه ••

كان من الطبيعى ان يكون التدريب على استخدام الذيل أول درس نتلقاه من أبى فى المدرسة ••

كانت مدرستنا تقع فى بحار الشمال البعيدة ، حيث تقف جبال الثلج العائم شاهدة علينا طوال الوقت بصمتها الهازىء المتحدى •

كان فصلنا يضم ستة حيتان من الذكور •• وكان أبى هو المدرس العبوس الذى يتحرك ذيله نحو المخطىء فيصيبه بلطمة خفيفة يظل تأثيرها ليالى طويلة •• كأن جبلا من الصخور يرقد فوق جنبك أو بطنك أو رأسك •• حسبما تقع الضربة ••

فى الأيام الأولى من المدرسة تذكرت بالأسى أيام الرضاعة الحلوة •

كانت أمى تعوم على جنبها وهى تنظر نظرة ساجية ، بينما أنا مقوس ألتصق بجنبها وقد التقمت ثديها فى فمى ، لا أحدق فيها وانما أحدق بهدوء وثبات بعيدا عن الثدى ، كانما أحيا حياتين فى وقت واحد •• يجتاح الحوت حين يمتص اللبن من الثدى احساس بأنه يستطيب ذكريات غير مائية ، ذكريات تجىء من عالم الروح حيث يسود سلام رائع وأمن عظيم ••

انتهى الأمر وتبدد السلام القديم فى الأيام الاولى للدراسة •

كنت خائفا من أبى •• لا أنكر •• وكنت أحس بالشوق لأمى •• لا أنكر • وكأنما أدرك المدرس العبوس ما يجول بخاطرنا جميعا فقال :

ـ عندما يغادر الحوت أمه يغادر سجنه الأصغر •• فاذا غادر أباه غادر سجنه الاكبر •• بعدها ينطلق وحشا فى المحيطات لايوقفه شىء ••

قال أبى كلماته ثم قفز بين المياه قفزة جبارة فانحدر الماء من حوله كان ألف جزيرة تقفز فى الفضاء ••

حين هبط ثانية الى الماء ضرب المياه بذيله ضربة تقعقعت لها عظامنا الطفلة المسكينة ••

قال المدرس : هذه أبسط ضربات الذيل ••

أريد ان يهتز الافق البعيد بأصوات الانفجار وانتم تضربون المياه ..

نبدأ بأكثركم وحشية ..

أشار بذيله نحوى ..

سألت : هل أقفز ام أضرب الماء أولا ..

قال : أقفز أولا أيها الغبى .

قفزت لأعلى . .صرخ يستحثنى ان أفجر عروقى وأنا أقفز .. صرخ اننى أقفز كأسماك القرش البائسة ، ثم غير رأيه وقال انها قفزة تشبه قفزات كلاب البحر المضحكة .. عاد يصرخ مطالبا بقفزة ملكية .. قفزة حقيقية .. لأعلى .. أريد ان تصل رؤوسكم الى الشمس ..

مرة ثانية لأعلى .. اضرب الآن بذيلك .. خيل الى من فرط القـوة التى أودعتها الضربة ان رشاش ضربتى سـيطفىء الشمس . قال أبى صارخا : لم أسمع غير تنهيدة سمكة مريضة ..

عاد يضرب ذيله فى المياه وقد اشتد هياجه عن هياج البحر .

وعدنا نضرب وراءه ..

استمر التدريب يوما كاملا ..

خيل الى فى نهايته ان جبال الثلج قاربت أن تذوب من فرط مجهودنا المتصل .. حين سقطت الشمس فى آخر المحيط قرصا أحمـر .. قـال مدرسنا وهو يستدير ويمضى :

ــ تنامون هنا حتى الصباح ..

لم يفكر أحدنا فى أمه .. ذابت فترة الأشهر الستة المـاضية فى عناء يوم واحـد ..

ضاعت منا أيام الجنة الأولى .. وها نحن نهبط بحار الشـقاء دون ان ندرى أى ذنب كسبناه .

نمت فى مكانى من فرط التعب ..

وفتحت عينى فى اليوم التالى على الدرس الثانى فى استخدام الذيل . . . .

أيقظنا انفجار قوى هو صوت مدرسنا وهو يضرب الماء بذيله • كان أبى يحرك نفسه بيسر ورشاقة يتموجان خلال جبروت القوة •• بل لعل رشاقته كانت تستمد جمالها من قوته •• وفى كل شىء جميل آسر الجمال تلعب القوة دورا سحريا ••

قال أبى فى ابتداء درسه الثانى دون أن يفتح فكه •• قال بشكل عملى :

— يختص بذيل الحوت خمس حركات كبيرة •

أولها أنه يستخدم كزعنفة تعين على الحركة والتقدم ، والثانية حين يتخذ درعا للهجوم أو الدفاع ، والثالثة حين يجرف به ويكتسح المياه، والرابعة فى استرخاء على المياه أثناء الصلاة ، والخامسة حين يرفع الشطيرتين فى اتجاه عمودى على المياه أثناء التسبيح •• ولئن بدت الحركات الخمس سهلة على قراء المياه النظريين فانها فى المياه جهد مفتت•

وبما ان ذيل الحوت أفقى فى وضعه فانه يتحرك على نحو يختلف عن ذيول جميع الحيوانات البحرية الأخرى •• وهو لا يتعقص أبدا •• فالتعقص فى الانسان والاسماك من امارات النقص •• والحوت مبرأ من النقص ، وذيله هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما أنه يلتف كالموجة أماما تحت الجسم ، ثم يقفز بسرعة الى الخلف ، فهو الذى يمكن الحوت من حركة انطلاقه الفريدة الواثبة حين يسبح بعنف وهياج •• أما الزعانف الجانبية فتعين على المخر ليس الا ••

أفهمتنا الدروس ان حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فانه يستخدم رأسه الجبار وفكيه •• فاذا انتقل الأمر الى الصراع مع الانسان فعلى الحوت أن يستخدم ذيله فقط •

ليس فى الأمر استهانة بالانسان أو ازدراء له ••

كل ما فى الأمر ان استخدام قوة تزيد عن الحد ، مع مخلوق يقل عن الحد ، ليست غير جهد معيب بغير حد ••

الرأس والفك اذن لصراع الوحوش والحيتان ••

والذيل وحده للصراع مع الانسان والسفن ••

وفى ذيل الحوت حساسية مرهفة •• وأحيانا يقف عصفور مائى على

ذيل حوت سابح •• ويحس الحوت على الفور نوع الطائر من وزنه ، يعرف أى طائر هذا ومن أى الجزر جاء ••

فى اللحظات التى تشرق فيها الشمس ••

وحين يكون قرصها أحمر اللون لم يدركه اصفرار الشيخوخة بعد ، تصطف آلاف الحيتان وتبدأ تسبيحها لله ••

ترفع جميعا شطيرتى ذيلها منصوبتين فى الفضاء ، عمودية على البحر متجهة للسماء •• ومن قرار الأعماق التى لا قرار لها •• يبدو الذيل الضخم وكأنه يحاول التشبث متشنجا بالسماء السابعة •

وليس اعظم فى الطبيعة الحية من هذا المنظر •

قلبى يخشع حين اذكره ، واذكر كيف تتذبذب أجساد الحيتان وأذنابها عمودية على البحر ضارعة الى الله بتسبيح الصباح •• ساعتئذ يشهد انا البحر أن الحيتان هى أشد مخلوقاته تقوى وأعظمها ورعا •

• • • • • • • • • • • •

فى العام الثانى من دراستى أبديت نبوغا ميزنى عن رفاقى الحيتان، وكان بشيرا بمجد ينتظرنى فيما بعد •

كان ذيلى الذى شوهته أنياب سمكة القرش بقعة من نار تشتعل فى الماء وتلهبنى كى اتفوق •• لم تكن أسماك القرش طعامنا الأساسى ، كان الاخطبوط وجبتنا الدسمة •

غير أننى آثرت ان أجعل أسماك القرش طعامى الأساسى مع الاخطبوط كنت أندفع وسط قطعانها برأسى مفتوحا عن آخره ، محــركا ذيلى فى نفس الوقت حركاته القاتلة ، وكنت أخلى البحر منها فى ثــوان قليلة ، وأترك القطيع بعد أن أغسل فمى من دمائه فى المياه •

مرت الأمواج وانتهت فترة الدراسة ••

لم يكن باقيا غير عام نقضيه فى دراسة التيارات البحرية ••

بعدها نخرج للقاء الانسان ••

أذكر أول مرة خرجت فيها لرؤيته ••

قاد أبى القطيع متجها نحو بحار الجنوب الدافئة ••

شاهدنا لعبا خشبية صنعت من نبات على البر يسمونه الاشجار ••

فوق هذه اللعب الخشبية مخلوقات غريبة تمشى على أقدامها وتحــرك أيديها وتنفث من فمها دخانا ..

قال قائدنا الأشهب : هذه هى السفن .. وهؤلاء هم أبناء الانسان رفعت رأسى وتأملت هذه الديدان التى تعتلى ظهور عيــدان وملأتنى الدهشة .. أهذا عدونا الخطير القديم ..

ان حجمه لا يزيد عن حجم ندبة صغيرة فى ذيلى المشوه ..

كيف يكون لمخلوق هذا الحجم الضئيل ، ورغم ذلك يحسب له الجبابرة منــا كل هذا الحساب .

قلت لأبى ونحن عائدون : اهذا هو الانسان

قال : أظنك تحتقر حجمه

قلت : نعم

قال : وترى نفسك أقوى منه

قلت : نعم

قال : وتحسب انك تستطيع ان تحطم سفنه وتلتهمها معه .

قلت : بالتأكيد .

قال : مخطىء انت بكل تأكيد .. هذا المخلوق الذى رأيته من البعــد كبقعة أو ندبة ، هو أخطر أعدائنا على الاطلاق .

قلت : أين تكمن خطورته ..

قال أبى : هل لاحظت رأسه .. ان رأسه مغطى بشعر أسود ..

قلت : رأيت ذلك فاين وجه العجب ..

قال أبى : يكمن سر قوته فى رأسه المغطى .

قلت دهشا : رأسه كله فى حجم نهاية أصغر أسنانى العاجية .

قال أبى مؤكدا : أسنانك بارزة .. ورأسه مغطى .. والفرق بينــكما لا يزيد عن ذلك . انت قوى لا تخفى قوتك ، وهو ضعيف يخفى قوته.. لن تعــرف أبدا من أين تأتيك ضربة الانســـان .. لن تعرف أبدا كيف تتقيها مقدما .. انه لا يعلن لك عن أفكاره ، انك تقترب منـــه فى دهشة لتتأمل هذا الحوت الخشبى العائم الذى يحمل فوقه مخلوقات تدخن .

وفجأة .. يتمزق قلبك وتتخبط فى دمك وتهلك .

لا تعرف من آين جاءتك الضربــة •• ولا كيف جاءتك ، انك تــرى الانســان يقف فى مكانـــه كأنما هو يحــركيــده بشىء •• انت تضرب بجبدك حين تضرب ، أما الانسان فلا يستخدم جسده •• يستخــدم أشياء نجهلها تماما •• لم يقل لنا أى حوت قتيل كيف أردوه ، أو بأى أداة سحبوه نحوهم ولا كيف مزقوا جسده قطعا صغيرة •

كل ما ندريه ان حيتان العنبر حــين تقع فى أسر الانسان •• يزداد النور فى سفنه حتى لتسير السفينة أثناء الليل مثل شعلة من الضوء •

زاد الأمر غموضا بعد حديث أبى ••

ملأنى اليقين أن الانسان يملك قوى لا تملكها الحيتان ، وحاولت عبثا ان أفكر فى هذه القوى فلم أصل لشىء ، وسرعان ما نسيت الانسان •• ظلت دهشتى منه غريقة فى أعماقى ، وظل سؤالى عن أسرار قوته بغير رد • انصرفت مؤقتا لشئونى •

كان على ان أؤكد ذاتى فى بحار الشمال والجنوب والشرق والغرب• وكان على أن أصارع أجناس الحيتــان الأخرى حتى تتوجنى عليهـــا ، ثم أنتقل من صراعها الى صراع بقية أنواع الوحوش ، ثم انتقل منها الى ترويع المحيط بمخلوقاته حتى تتوجنى عليها •• بعدها أبدأ الصراع مع حوت العنبر المتوج فاذا انتصرت عليه صرت سيد المياه • استغرق الصراع مع بقية الانـــواع عشر سنوات •• كان أبى خلالها قد هــرم وثقلت حركته وازداد الشحم حول جسده وصار يتحرك كجزيرة عائمة تنفث •

وكعادة الحيتان •• صار أقوى حيتان العنبر سيدا على البحر •• كان الحوت الذى احتل مكانة أبى حوتا جبارا أسود الجسد أبيض الذنب • كان أبى يرقب تقدمى البطىء الواثق فى هدوء أقرب الى التأمل •

لم يحدثنى يوما عن آماله القديمة فى اعتلائى عرش المحيط ••

ولم أحدثه أيضا فى ذلك •• كان كلانا يعامل الآخر بتحفظ حــذر واحترام بالغ •• ضاع حبى له وبقى الاحتــرام •• كنت أسأله كلمــا رأيته •

ــ كيف حال الحوت العجوز

وكان يجيب : ثقلت عظامه وبدأ فمه يجد طعم العنبر •

وأسأل : ماذا يعنى ذلك أيها الحوت العجوز •

ويجيب : بدأ الموت يغزو والدك فمتى تركب قمم الامـواج لتستقـر عظام أبيك على عظام المحيط ••

وكنت أجيبه : قريباً أيها العجوز •• قريبا •• ربما شهدت قبل موتك تاج المياه ينتقل لابنك ••

كان انتقال التاج يقتضى معركة وحشية مع الحوت المتوج ، وكان هذا الحوت صاحب فك عظيم وذنب جبار •

وكنت فى مثل قوته ، ورغم ثقتى اننى استطيع هزيمته فقد ارجأت القتال معه قليلا •

لم أكن أريد هذا النصر المزرى الذى ينتصر فيـه المنتصر لأنه صمد أكثر أو ضرب أكثر او اجهد نفسـه اكثر ••

كنت اريد تفوقا ساحقا لا يسمح لى بأكثر من لحظة صراع أمزقهفيها• ولقد اقتضانى هذا أن أؤجل الصراع بعض الوقت ••

كنت اثناءه اتدرب على شىء لم تتدرب عليه الحيتان من قبل ••

شىء أوحت به الى ذات يوم موجة عاتية ••

شاهدت موجة تحطم صخرة من صخـور الشاطىء •• أعـرف أن الموجة ألين من الصخرة واضعف ، كيف يحطم الاضعف الأقـوى •• جرى تفكيرى للانسان الذى حذرنى منـه أبى •• قلت لنفسى • ربمـا انكشف سره مع سر هذهالموجه•رحت أدرس الموج أياماوشهورامتتابعة••

أخيرا عثرت على السر •

اكتشفت ان الموج لا يكف أبدا عن حركته المعتدية ، انه لا يسأم من لطم الصخور ••

يتدرب الموج كل يوم •• هذا سر قوته ••

عدت بذاكرتى الى أيام الدراسة الأولى وتذكرت كيف تكف الحيتان عن التدريب اليومى بعد انتهاء الدراسة ، وتكتفى بالحياة العملية •

قررت ان أشذ عن جنسى وأتدرب فى الخفاء ••

وهكذا اعتدت الاختفاء كل يوم نصف نهار فى نفس مكان مدرستنا القديم . كان المكان مهجورا لم يعد يتدرب فيه أحد .

كانت جبال الثلج التى طالما شهدت عقابنا ونحن أطفال لم تزل تقف شامخة هادئة كما هى .

واندلعت داخلى رغبة غير مفهومة فى تحطيم أحد هذه الجبال .

أليست هى الشاهد الوحيد على ضعفى أيام الطفولة .. ينبغى أن يزول أكبر هؤلاء الشهود حتى تخاف بقية الجبال . اخترت أعتى الجبال وقررت البدء به .. كنت أحرك ذيلى وانقض على جبل الثلج برأسى وفكى .. فى المرة الأولى اصابتنى الضربة بالدوار .. وظل الجبل على حاله بغير خدش واحد . وعاودت المحاولة برفق ، ثم بقوة أكثر .. ثم بعنف .. فى نهايةاليوم .. كانت هناك ثغرة فى الجبل تشبه الكهف .. وكان رأسى يوجعنى قليلا .. وان أحسست أنه يزداد صلابة . كان طول رأسى يزيد عن ثلاثين مترا .. وكان الجبل هائلا لا يريد أن يتزحزح ، قلت لنفسى وأنا أنصرف عنه :

— سيصنع التدريب كل شىء .. غدا يزول الجبل ..

ظللت ثلاثة أعوام أضرب الجبل كل يوم آلاف الضربات برأسى ، ثم جاءت اللحظة الحاسمة أخيرا وتحطم الجبل ..

انشق نصفين محدثا صوتا هائلا جعلنى أسبح بعيدا عنه ، ثم وقفت رافعا رأسى فى المياه متأملا هذه الكتلة الهائلة التى تميل على جنبها فى الميـــاه ..

هزنى الزهو الوحشى فعدت .. لم أنسف الجبل ولم أحركه من مكانه ولكننى كسرته نصفين .. صنعت فيه شقا طويلا جعله جبلين صغيرين . انتهى الامر .. وصار بقاء الحوت الأسود ذى الذيل الأبيض على عرش المياه مسألة قد فرغ منها ..

خلال فترة التدريب القاسية التى فجرت فيها عروقى من الجهد ، وعقلى من العناء .. كان ملك الحيتان المتوج على المياه يقضى أوقاته فى البحار الدافئة مستمتعا باناثه الجديدات ، تماما مثل سمكة سمينةوكسولة من أسماك البورى .

انتهى الأمر بوحش الأعماق ورعب الموج فصار سيدا للحب والغزل •• واضطربت الاحوال الداخلية فى دنيا الحيتان ، صـــارت الاناث الضعاف والحيتان المرضى تقتل كل يوم بالعشرات •• واصطبـــغ المحيط بدمنا الدافىء المتدفق العبيط ، وبدا واضحا أن البحر لم يعد ملكا لبنى الحيتان ، أغار الانسان على البر وها هو يمد نفوذه الى البحر •• ولم تكن مشكلة كهذه تحتمل التردد ••

ينبغى أن يخلع ملك الحيتان عن عرشه ••

لايستحق هذا العجوز المتهالك على الاناث تاج الأعشاب الخضراء التى تلتف حول رأسه حين يخرج من القاع ••

لم أكن أفهم هذا النزوع للاناث والتهالك عليها ••

لم ألمس حوتة منذ ان ولدت ••

لم أعرف ملمس جسد لأنثى غير جسد أمى التى أرضعتنى •• بعدها آمنت برأى أبى فى الاناث •• آمنت أن الحوت الذى يعيش طويلا مع الاناث يكتسب كثيرا من عاداتهن ولا يستطيع أن يظل على وحشيته •

كنت أعرف أن الحيتان تجتمع كل عام فى موسم الحب فى البحار الـــدافـــئة ••

وهناك يتصدر قيادها حوت واحد ••

ومن حق أى حوت آخر أن يصارعه لو أراد اعتلاء عرشه •• ويكون الصراع عادة على الاناث ••

كان الوقت لم يزل مبكرا على اجتماعنا السنوى ، لم أكن مستعدا للصبر طوال الشتاء •• كان أبى ينحدر نحو نهايته بسرعة ، ولم أكن لاخذله قبل أن يموت •

وجاء يوم خرج فيه القطيع كله وقد تصدره الحوت الأســود ذو الذنب الأبيض ••

طاردتنا سفينة صيد ••

نزلت منها ثلاثة قوارب وبدأت تسبح وراءنا •• كنت أستطيع أن أستدير واهشم القوارب •• غير اننى آثرت أن انتظر قليلا لأرى كيف

يتصرف القائد المسئول عن القطيع •• ضرب قائد القطيع المياه بذنبه ضربات متعاقبة لـكنه ظل بعيدا عن السفينة • استطعت أن استنشق لضرباته رائحة خوف خفى ••

فى احدى المرات التى غصنا فيها شاهدت شيئا يندفع نحو أبى •• بعدها انطلقت آهة الحوت العجوز •• جريت نحو أبى أسأله •

ـ ماذا حدث أيها العجوز •

قال : مزق جسـدى شىء لست أدرى كنهـه •• أرانى أتحول الى ضوء للمصابيح •• أرانى معلقا على البر مدلى من أسقف المنازل •

قلت : ستعيش فلا تقلق ••

خرجت من الماء واستدرت مندفعا نحو السفينة •• كانت تقبل بكل سرعتها نحوى •• وصرخ على قائد القطيع يحذرنى من الصدمة •• لم أعبأ بصرخته وازداد انطباق فكى وازدادت حركة ذيلى وازداد اندفاعى •

كان صوت الصدمة هائلا ••

انشطرت السفينة من مقدمتها نصفين •• وقالت الحيتان صارخة •

ـ تحطمت جبهة الحوت الأبيض ذو الذنب المشوه • استدرت بعد الصدمة واستخدمت ذيلى فى كل اتجاه •• لمتكن السـفينة أقوى من الجبل ، وكنت مدربا على الجبل •• بعد لحظات كانت السفينة بقواربها وناسها قد اختفت تحت صفحة المياه وانطبق عليها اللون الأزرق •

كان أبى جريحا •• واقترب منه الحوت الأسود محاولا اكتشاف علته ولكننى صرخت عليه من موضعى امام الحيتان جميعا أن يظل فى مكانه ، فهو سمكة خائرة وليس حوتا ••

توقف الحوت واسـتدار نحوى ••

ضرب أبى ذنبه فى المياه وراح ينفث •• أدركت انه فهم ما أقصد •• كان أبى يحتضر •• وأردت أن يرانى سيدا للبحار قبل أن يموت • لم يستغرق صراعى مع الحوت وقتـا ••

اندفعت نحوه قبل أن يندفع نحوى واطبقت بفكى على رأسه • غاصت أنيابىالعاجية الجبارة فى رأسه •

هشمت رأسه مثلما أهشم بيض الأسماك حين أريح جسدى على قاع المحيط ..

كانت قوتى تكمن فى رأسى ، وكانت قوته تكمن فى ذيله .. وقد هشمت رأسه قبل أن يستخدم ذنبه ..

وهوى الحوتان فى المياه ..

جسد أبى وجسد سيد البحار بعده ..

رفعت ذيلى عموديا على الماء ونفثت .

رفعت الحيتان بعدى أذنابها عموديا على المياه ونفثت ..

قدمت خضوعها لى ، بصفتى ملكا متوجا على المياه ، ثم قدمنا معا خضوعنا لله .. بوصفه رب الموت والحياة .

ومرت أمواج وأمواج ..

لم يعد فى المحيطات الأربعة حوت مثلى .. دانت لى وحوش البحر بالطاعة ، ودانت لى الامواج بالخضوع .. وانكشف لى سر التيارات البحرية ، وبقى سر الانسان مغلقا امام عقلى .. واقسمت الا يمر انسان وسط أمواج شهدت مصرع أبى واعتليت فيها عرشى .. أقسمت أن أحطم كل سفينة تمر من هذه المياه ..

لقد جاء الانسان من الأرض فاخرجنا منها .. وهاهو يبدأ غزوه للبحر فينبغى التصدى له واعادته الى البر ..

انعقدت جبهتى على ذلك ..

وظللت وفيا لقسمى سنوات ..

على امتداد سنوات لم تكن سفينة تمر فى البحر وتستطيع أن تنجو ..

لم يكن انسان يجرؤ على هبوط مياه البحر ويعود سالما ..

حتى لو استقر فى جوف سمكة قرش ، فلم يكن ليهنأ باستقراره .. كنا نحمل سمكة القرش ذاتها الى جوفنا ..

ورغم استمرار الصراع مع الانسان .. ورغم هزيمة الانسان فيه وانتصار الحيتان .. بقى سر الانسان طلسما لا يعرف حله أحد .

كيف ينجو الانسان من جوف الحوت ؟
عذبنى السؤال طويلا ثم جاء يوم .

. . . .

كنت راقدا فى أعمق جزء فى المحيط ..
أرسيت عظامى على عظام القاع ونمت .. صدرى يمتلىء بهواء يكفينى حتـــى الفجـــــر ..

فوجئت بأننى مستيقظ ومشدود الحواس ..

لم أدر السبب فيما حدث .. رأيت نفسى اصعد الى سطح البحر دون سبب مفهوم .. خيل الى ان يد القدرة التى تسير أصغر الأمواج كانت تحـــرك ذيلى ..

وصلت الى سطح البحر .. كان هائجا مزبدا ..

أتكون العاصفة قد بدأت .. نفثت قليلا وقررت أن أعود الى القاع.. كان الجزء الذي اخترته من القاع هادئا بالقياس الى هذا السطح ..

فجأة لمع فى ذهنى سؤال كالبرق .

كيف يكون السطح عاصفا والقاع هادئا .. أعرف من تيارات الماء متى تجىء العاصفة .. أعرف ذلك قبل أن تجىء ..

.. أتكون قوانين الموج قد تغيرت خلال اغفاءتى القصيرة ؟

وقفتأمام السؤال حائرا تماما ..

فوجئت بأن سفينة تتأرجح هناك ..

أسرعت نحوها بهياج وعنف.قلت أساعدها على الغوص بضربة .. لم أكد أصل اليها حتى فوجئت بأننى نسيت ما جئت من أجله .. رأيت نفسى أسبح خلف السفينة وكأننى خرجت فى نزهة بحرية ..

لست أعرف ماذا أصابنى .. كان الظلام كثيفا ومنطبقا فقلت : لعلنى لم أستيقظ بعد .. شاهدت شيئا يسقط من سطح السفينة .

تقدمت نحو هذا الشىء فرأيتنى أمام عدوى القديم ..
انسان يتخبط فى جوف الهياج الجامح ..
تقدمت نحوه وفتحت فكى ..

دفعته موجه قوية داخل الفك ..

أغلقت عليه أنيابى العاجية والتقمته ..

هزتنى رعدة قوية وأنا أسمع صوتا ولا أرى أحدا .. كان الصوت يجيء من كل مكان ولا يجيء من مكان محدد .. كان الصوت لأحدملائكة الله .. كان الصوت يقول :

ـ لم نجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، خذه ولا تكسر له عظما ولا تخدش له لحما .

فى بداية الامر ، لم أفهم قصد الكلمات ، تنفست نفسا عظيما وغصت فى عمق البحر .. ظللت أغوص حتى وصلت الى القاع ..

أرحت عظامى وأغفيت .

لم أكن أحس أننى أنا ..

كلمة تثير الدهشة ولكنها تعبر عن احساسى الحقيقى وقتئذ ..

قبل أن أنام فكرت فى الغرائب التى شاهدتها .

تساءلت كيف يكون السطح هائجا عاصفا والقاع ساكن راكد .

تساءلت لماذا استيقظت . ما الذى أصابنى حين رأيت السفينة فلم أحطمها .. من هو الانسان الذى سقط منها .. هل ألقى بنفسه أم ألقاه أحد .. لماذا ألقى بنفسه .. ما الذى فعله .. لماذا التقمته ..

ما معنى الكلمات التى حذرتنى من المساس به .. كيف أبتلعه ولا أخدش له شيئا ...

دارت الأسئلة فى رأسى وثقلت وطأة السر على فاستسلمت للنوم ..

استيقظت حين انتهت كمية الهواء فى رئتى ..

خرجت الى السطح .. كان هادئا صافيا بغير موجة واحدة .. رحت أنفث ..

تذكرت ما حدث ليلة الأمس .. وخيل لى اننى كنت أحلم ..

جاء موعد افطارى فهرعت نحو خليج تكثر فيه الاخطبوطات .. وصلت الى الخليج وحاولت أن افتح فكى لاتناول وجبة الافطار فلم أشعر داخلى باى رغبة فى الطعام .

ما هذا ••
أأكون مريضا دون أن أعلم •
مرت جوارى سمكة متوحشة من أسماك القرش •

كانت عادتى أن ألتقمها صاحية ، وأهضمها على مهل فى جوفى •• حاولت أن افتح فمى لابتلاعها فلم استطع •• ام اجد داخلى رغبة كافية تمكننى من فتح فمى • ادركت ان الغرائب التى عاينتها فى الليلة الماضية لم تكن حلما كما ظننت •

كانت واقعا لم تزل آثاره مستمرة •

فكى المنطبق وبطنى الزاهد دليلان على تغير لست أدريه •

قفزت ساجدا نحو السماء سائلا تفسير ما وقع •

احسست بحضوره دون أن اراه ••

ثنيت جسدى تحية للملك وقلت :

ــ أيها الملك الكريم •• ان الحوت الابيض ذا الذنب المشوه مريض ويرى احلاما • ليلة الأمس وقع لى حادث مروع ••

قال : وقعت ليلة الامس معجزة •

قلت : ايسمح سيدى الملك الآمر فى البحر أن يحدثنى عمن ابتلعت ليلة أمس •

قال : ابتلعت ذا النون •

تساءلت : معذرة لجهلى •• من يكون ذو النون

قال : نبى وديع ونسمة كريمة •

قلت : هل ألقى نفسه من ظهر السفينة ••

قال : ساهم فكان من المدحضين •

قلت : التقمته دون أن اعرف انه نبى •• لم أكن أعرف أن ابتلاعه سيستدعى حضورك •• أو حضور أى ملك من الملائكة ••

قال : لم يجعله الله لك رزقا •

قلت : ولكنه فى جوفى •• انتهى الأمر وصار لى رزقا •

قال : لا •• هو فى جوفك ولكنه ليس رزقا لك •

قلت : لماذا ابتلعته اذن

قال : انت له حرز ومسكن •

قلت : كيف يكون الوحش حرزا ومسكنا لنبى هو الوداعة •

قال الملك : ايها الحوت •• تأمل جسد الانسان •• وهو اعظم منك وحشية ••

تأمل نفس الانسان أو روحه •• اليست هى النقاء والوداعة •• تأمل كيف يعيش الاثنان معا •• الجسد رداء للنفس ، والنفس لب للجسد ، والجسد هو الوحش ، والنفس هى الوداعة •

قلت : كيف تنجو النفس من الجسد

قال : كما تنجو الوداعة من الوحش

قلت : كيف تنجو الوداعة من الوحش •

قال : مثلما ينجو يونس من جوفك ••

قلت : كيف ينجو يونس من جوفى •

قال : ستعرف كل شيء •• تذكر فحسب انك صورة لحوت •

انت وحش حقا ولكنك لست اعظم وحشية من جسد الانسان ••

انطبق الجسد على النفس فلنر كيف تنجو النفس ••

انصرف الملك وتركنى وحدى •• اسبح فوق سطح ازرق غامض صرت اشك فى زرقته •

زاد كلامه الأمر غموضا فى عقلى •• يقول لى اننى صورة لحوت •• أيعنى هذا اننى لست حوتا حقيقيا •• ايكون ما يقع لى الآن احلاما لا تقع لى •• أيكون كيانى الوحشى جسدا لمعجزة دون أن أدرى ، أو يكون رمزا لشيء لا علاقة لى به •

اعتلت الشمس عرشها فى قلب السماء •• لم أزل سابحا انفث •• تعبت من السباحة فقلت أستريح قليلا فى أعماق البحر •• ثنيت ذيلى الجبار وغصت ••

اغوص فى مياه سوداء متفكرا ••

ماذا يصنع ذو النون فى جوف الآن •• وكيف تنجو الوداعة من الوحش ••

للمرة الوحيدة فى حياتى احسست اننى أشفق عليه ..

ليست كلمة الاشفاق معروفة فى قاموس الوحوش .

هى كلمة متحجرة بائدة لا يستخدمها من الوحوش أحد الا اذا مرض وتراءى له وجه الموت .

اترانى مريضا ينتظر الموت

اترانى لم أعد وحشا كما كنت .. لكننى طوال طريقى الى الاعماق كنت اشهد مخلوقات القاع تفر أمـــامى .. تتخبط بالرعب وتتحطم على الصخور وتهرب ..

وحش لم ازل كما كنت .. فمن اين تأتينى هذه الرقة . ايكون هذا الذى التقمته بالأمس هو المسئول عما اصابنى من ضعف .. أليس نبيا .. اليس نسمة مباركة .. اليس وديعا .. لا ريب انه المسئول عما اصـــابنى من وداعة وبؤس .. وليس أعظم بؤســـا للوحـــوش مـــن مرضها بالوداعة

أردت أن أكرهه فلم أستطع .. أردت أن أنساه فلم أتمكن .. احتل النبى جوفى وعقلى معا .. حمدت الله اننى لم ابتلع سمكة القـــرش الوحشية فى الصباح .. لو ابتلعتها لأكلته السمكة .. نسيت اننا طردنا من البر بسبب الانسان ، نسيت كل العداوة السحيقة بين جنسنا وجنسه .

تركز تفكيرى فى شىء واحد ..

ماذا يفعل النبى فى جوفى الآن ..

فكرت فى المياه السوداء التى اغوص فيها ، وجوفى الذى ينطبـــق عليه ، واحسست بوطأة مأساته ..

اصطدمت بالقاع فأوقفت حركة ذيلى وتوقفت ..

مرت جوارى آلاف الحيوانات البحرية والوحوش وهى تؤدى التحية بسرعة الخوف والتخبط .. رأيتها تمشى مضيئة ينبعث ضوؤها منها .. فى الاعماق البعيدة من البحر .. تنكسر قوانين الشمس وتموت الشمس ذاتها بعد ثلث البحر الاول ..

بعدها تنطبق مملكة الظلام .. ذكرنى ضـــوء الوحوش السـابحة بظلمة جوفى وتساءلت : كيف يجلس النبى وسط هذه الظلمات .

ـ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ..

كان الصوت غير معروف لدى ..

اعرف اصوات الوحوش والحيوان والاسماك .. ليس هذا صوت احدها بالتأكيد ..

حركت ذيلى حولى لأرى من يكون مختبئا فى اعماق الظلمة فلم أجد أحدا ..

ـ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ..

لم يزل الصوت يتردد .. بلا انقطاع يتردد .. لا يكف ولا يمل ولا يسكن ولا يسأم .. كلمة وراء كلمة .. لا تكاد تنتهى الجملة حتى تعود كما بدأت من جديد .. دورة كدورة الشمس أو دورة القمر ..

اعتصرت ذهنى تفكيرا لأعرف من اين يجىء هذا الصوت .. ثم لمع فى عقلى فجأة أن الصوت يصدر منى ..

شاهدت شيئا يشبه النور يخرج من جسدى مع كل تسبيحة .. أدركت ان النبى السجين فى جوفى يسبح الله .. اصابتنى رعدة شملت جسدى كله . احسست ان العرق ينعقد على جبينى الاشهب حبات كحبات كاللؤلؤ ..

حركت ذيلى واوقفته عموديا على القاع ..

قلت اتبع ذا النون مادام لم يتبعه أحد .

ـ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ..

ترتعش الكلمات بحب يضىء ظلمة القاع ، وتتوهج المياه بحنو لم أكن أحسب المياه تنطوى عليه .. انتصلت الشرارة من جوفى بذرات المياه واعشاب القاع المتحجرة وصخوره القديمة ورماله الطينية ..

استيقظ قاع البحر وانصت لتسبيح ذى النون ..

ـ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ..

يفرد النبى ربه بالالوهيه ، ويقدسه بالخضوع ، ويرمى نفسه فى نفس الوقت بالظلم .. رحت افكر فى معنى الظلم ، ما الذى تعنيه الكلمة .. كيف كان ذو النون من الظالمين .. ماذا فعل .

احسست ان الاسئلة تطبق على عقلى وتكاد تهشمه فاندفعت خارجا ••قفزت من المياه ساجدا لأعلى وتساءلت :

ـ ماذا فعل النبى الذى أحمله فى جوفى يارب ••

لا صوت غير صوت الأمواج ••

لم يجبنى أحد ••

أيكون سؤالى تجاوزا لرتبتى فى الخليقة ••

ملأت رئتى بهـواء البحـر ورحت انفث •• الشمس تغرب هناك • والنبى داخلى لا يكف عن التسبيح •

تأملت غروب الشمس ••

قلبى ثقيل وصدرى ضيق كأننى القيت خارج المياه • حزين من أجله•

مثل ضربة الانسان المجهولة التى تصيب الحوت فيهوى متخبطا فى دمه ، اصابتنى ضربة حزن داهم فهويت متخبطا فى بحار الحزن •

ايكون حزن النبى السـجين ينتقل الى •• تذكرت فجأة أن معـدتى تعمل ، عصاراتها تعمل •• ربما هضمت صاحبى الذى يسكن جوفى ••

أقول صاحبى وأحس ما اقول •

اردت ان اوقف عصارات المعدة فلم استطع ، ايكون المخلوق وحشا ورغمها لا يستطيع التحكم فى عصارات معدته •• أى وحشية تبقى له ان كان فى جسـمه جزء لا يطيعه •• بذلت جهدا يائسا محاولا التحكم فى معدتى فلم انجح •• قررت الصيام • قلت لنفسى : لعل الصيام ينقـذه •• رحت افتح فكى واملأ رئتى بالهواء لعل بعض الهواء ينقذه •• يتسلل اليه فلا يختنق •

ماذا لو اختنق او هضمته •

ماذا اقول للملك الذى أمرنى ان أحافظ عليه ••

هزنى الخوف فرحت اضرب ذيلى فى المياه ضربات جبارة مهولة ، وأنا أصيح

ـ أريد أن يعيش يارب •• أريد أن ينجو •

أصابنى ذعر غامض •• رحت اغوص واندفع خارج المياه لغـير ما سبب •• ظننتنى الحيتان مريضا وهرعت الى

تساءل حوت : ماذا أصاب الحوت الابيض ذا الذنب المشوه

قلت : داخلى سر لا استطيع الافصاح عنه فانصرف •
انصرفت الحيتان وبقيت وحدى تماما ••
الموج يرتفع وينخفض •• والتسبيح يرتفع ويرتفع •• لا ينخفض أبدا ولا يتوقف ولا يهدأ ولا يستريح ولا يكف •
سقطت الشمس تماما فى البحر •
ارتدى الليل آخر ثيابه السوداء ••• وارتدى قلبى آخر ثياب الحزن ••
ملأت صدرى بالهواء وحركت ذيلى وهويت نحو القاع •
ارسيت عظامى على عظام القاع وسكنت •
احاول أن افكر •
حاولت أن اتصل به فهمست فى جوف الليل وجوف البحر وجوف الخوف : أيها النبى الكريم •• ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك •
قال ذو النون : **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين** •
قلت : أيها النبى الكريم •• كيف اساعدك على النجاة •
قال ذو النون : **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين** •
ادركت انه لا يستمع الى •• كان مشغولا بتسبيحه عنى ••
اغلقت قلبى على الصمت وكففت عن الاسئلة •
رفعت ذيلى عموديا على القاع ورحت أسبح بطريقتى الخاصة ••
وانعقد فى القاع مهرجان من الخلائق
رفعت الرمال رؤوسها وسبحت •• اجتمعت الاسماك وراحت تسبح •• جاءت الحيتان والوحوش وراح كل واحد فيها يسبح باسلوبه الذى علمه الله له ••
كنت مستمرا فى التسبيح شاعرا فى نفس الوقت بخوف هائل ••
كنت جسدا وحشيا لكننى كنت ارتعش ، أيخاف الجسد من النفس حين تبدأ التسبيح ••
كل ما ادريه اننى كنت على استعداد لان أفعل أى شىء لانقاذ يونس •
انتهى ما ادخرته من الهواء فعدت مسرعا الى السطح
رحت أسبح وانا انفث ••

مرت الى جوارى سفينة فلم أعرها التفاتا ..

جائع لحد الاعياء .

منذ يومين لم آكل شيئا ، والمفروض ألا يقل طعامى اليومى عن ألف كيلو من السمك ..

قررت أن استمر فى الصوم .

بدأت معدتى تتقلص .. وراحت امعائى تصنع العنبر .

لا أستطيع أن اغامر بابتلاع أى طعام بعد أن ابتلعت يونس .

لو تحركت معدتى فسوف اقتله ..

لتبق المعدة هادئة بغير حركة ، أو بحركة التقلصات المؤلمة وحـدها دون حركة الهضم .

— **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .**

لم يزل تسبيح النبى مستمرا .

ادركت اننى اقتل نفسى بالصوم .. لكننى أدركت فى نفس الوقت أن يونس لن ينجو من جوف الا اذا قتلت نفسى

كان يونس قد صار نفسا « ثانية » لى ..

وكان كيانى قد صار جسدا « ثانيا » ليونس ..

ولا تنجو النفس الا على حساب الجسد ..

. . . .

جاء اليوم الثالث

صائم لليوم الثالث . دم القوة ينسحب من جسدى فيعلو صـوت تسبيح النفس ..

فى العمق البعيد من روحى يشرق نور يجل عن الوصف ..

امعائى تمتلىء بالعنبر .

تقلصات معدتى تزيد وصوت تسبيحه يتردد

— **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .**

اطوف البحار الباردة والدافئة جميعا قبل أن ارحل ..

القى نظرة السلام الاخير على الخلجـان والصخور والجزر والحيتان والاسماك والطحالب والزبد والملح .

اتوقف عند جزيرة ••

تقلصات معدتى تمزق معدتى ••

اسمع صوتا يجيء من كل مكان ، ولا يجيء من مكان محدد « **فلولا انه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه الى يوم يبعثون** » •

فتحت فكى وتباعدت انيابى العاجية من الألم •

اطلقت السجين من جوف على الجزيرة •

عرفت السر قبل ان اموت فما أقسى المعرفة

على الماء اكتب ••

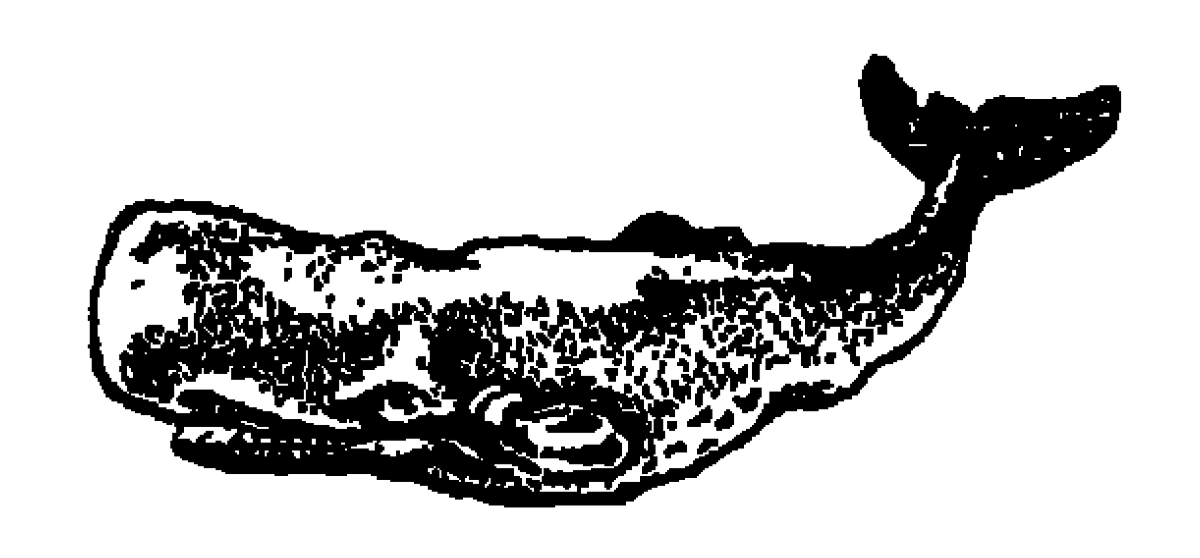
بالعنبر العطرى اكتب ••

تذوب الكلمات فى البحر وتنطوى الصفحة الزرقاء على السر فاكتب•

أحلم أننى زيت معلق فى قناديل تهتز مع الريح • تهتز مثل هـزات المـوج •

تهتز ••

تهتز ••



بقرة بني إسرائيل



النظرة المستسلمة الساجية فى عينى الواسعتين لا تتغير أبـــدا .

الطعام كاف أو غير كاف ..
الماء متوفر أو شحيح ..
الشغل قليل أو كثير ..

تختلف الظروف والأحوال ، وتتغير المعاملات والاقوال، ورغم ذلك تبقى نظرة الاستسلام الساجية فى عينى كما هى .. لا تتغير ولا تتبدل ..

ألاحظ أن عيون الناس تتغير طبقا لتغير مزاجهم .. فهل يعنى ثبات عينى أننى لا أنفعل ..

ربما ننفعل .. غير أنه انفعـــال مقيـــد على شرط ، وليست له غير حالة واحـــدة . عندما تقف ذبابة (سئيلة) فوق ظهرى أنشغل .. أهز ذيلى الى الامام محاولة طرد الذبـــابة .. اذا ظلت متمســـكة بمكانها فوق ظهـــرى كففت عن هـــز الذيل واستسلمت ورضخت ، والرضـــوخ متعتى فى نهاية الأمـــر .

اذا كان هذا حالى مع الذباب ، فلا شك أنكم تقدرون موقفى مع الانسان .. لا أنفعل أبدا معه ..

أخاف أحيانا حين يضربنى .. غير اننى استسلم لخوفى من خوفى منه .. حياة رائعة ..

بقرة وراضية عن حيـــاتى تمام الرضا .. نعمة أنـــا ولكن لغيرى .

لا أعرف متى اذبح •• أعرف ان آلاف البقر يذبح ، ويبدو اننا نحس بنوع من السعادة الغامضة حين نذبح •• هذا معناه اننا نحقق ذاتنا •• نتحول الى طعام هنىء يدخل جوف الانسان •• كما نتحول الى نعال ينتعلها أبناء آدم •• نطعمه ونكسوه ونقوم على خدمته ••

شىء كريم أن يكون العطاء طبيعة وحيدة للمخلوق ••

نعرف ان الانسان يأخذ منا ــ نحن البقر ــ كل شىء •• حتى ما يعطيه لنا يعطيه لنا بنية الاسترداد فيما بعد •

اذا كان يعطى الفول والشعير فهو يريد أن يأخذ لحما سمينا فى المستقبل ••

ليس هناك شىء لوجه الله ••

المسألة محسوبة ومقدرة ومعروفة ، ورغمها لا ننفعل ••
الانفعال فى عرفنا لا يجوز ، مثلنا الأعلى أن نقول : دعونا نأكل الفول ونعيش • الرضوخ هو السبيل للحياة ••

هكذا تعلمنا وهكذا عرفنا وهكذا ورثنا •

قال لنا الشيطان يوما ــ لو ثار البقر لوقع انقلاب فى دنيا البشر •

ان الانسان يستغل مجهودكم فى الحقول ، ويصنع من البانكم جبنة وقشده وسمنا وعسلا ، وأخيرا يذبحكم ويأكلكم •• ايها البقر •• ان عدونا وعدوكم واحد هم البشر •

لو ظللتم على استسلامكم له فلن تتطوروا أبدا •• لقد ولدتم بقرا وستعيشون بقرا وتموتون بقرا •• ثوروا •• تحركوا •• افعلوا شيئا •

استمعنا الى كلام الشيطان ، وقالت احدى الابقار تحدث زميلة لها •

ــ كنت تتحدثين أيتها الأخت عن الفول الذى أكلته من الحقل الجديد ، اكان طعمه يختلف عن فول الحقل القديم •

قال الشيطان : تحركوا •• كفوا عن الكلام فى الأكل وثوروا ••

قالت البقرة : كان طعم الاثنين واحــدا ايتها الأخت •• هذا الفول وذلك الفول ••

انصرف الشيطان يائسا وهو يغمغم بكلام لم نتبينه عن البقر والبشر •

بعد ان مضى الشيطان سألت احدى الابقار •

ـــ من كان هنا •

قالت زميلة : واحد لا أعرفه •

قالت بقرة أكان يتكلم ؟ •

قالت أخرى : كان منفعلا •• قال شيئا لم يعلق فى رأسى •

لا يعلق فى رؤوس البقر شىء •• نسمع الكلام من الاذن اليمنى فيخرج من اليسرى •• رأســنا كبير لا يحمل الهموم ولا المشــاكل ولا المتاعب ونهذا السبب يعيش البقر طويلا •• نعتبر أن يوم الانسان عاما بأكمله من السرور والهنــاء والفول والرضا ••

اعيش فى بنى اسرائيل •

بقرة مملوكة ليتيم ••

لم اكن بقرة عادية فى الحقيقة •• كنت جميلة وســط البقر •• صفراء فاقع لونى يسر الناظرين •• لم يكن فى جسمى كله أى أثر للون آخر •• لم أكن كبيرة ولم أكن صغيرة •• متوسطة كنت ولطيفة يندر العثور على مثلى فى البقر • أريد ان اتكلم قليلا على بنى اسرائيل •• ناس يثيرون دهشة البقر ••

تسمع الكلام فيعجبك •• وترى الأفعال فتستعجب •

كلامهم فى وجوه بعضهم البعض حلو •• فاذا استدارت الاقفية تحول الحلو الى مر ••

أسمع طبعا عن سيدنا موسى ••

هذا نبيهم الكريم وكليم الله ••

لم أره ابدا ولكننى سمعت عنه •• وكان الكلام عنه متناقضا وغريبا ••

ان عدد الذين يحبــونه من بنى اسرائيل أقل بكثير من عـــدد الذين يكرهونه ••

وهذا طبيعى فيما اعتقد •

جاء موسى بالحق •• وما اثقل الحق على النفوس الظالمة •

لا أنفعل أو ارفع صوتى بهـــا ••

اقولها برضا •• ما لى انا بهم •• هم احرار فى أنفسهم ••

أعيش فى حالى •• ومن عاش فى حاله ذبح فى النهاية •• وعظمة البقر أنه يذبح فى النهـــاية ••

كان اليوم مشمسا دافئـــا ••

اسمع هذا التعبير دائما •• استطيع أن افهم معنى الدفء •• استطيع أن أعرف معنى النظافة ••

ليس البقر كالجاموس يشرب من ماء عكر ملوث •• أو ينام فى فراش مبلل أو غير نظيف •• نحن نعشق النظافة ونرفض ما عداها ••

الشىء الذى لا افمهه هو الشمس ••

اســـمع الناس تتحدث كثيرا عن يوم مشمس •• وشمس حارة •• وشمس تشرق وشمس تغرب •• ولكننى لم ار الشمس فى حياتى مرة واحـــدة ••

أحس احيـــانا ان هناك شـــيئا حارا يتخلل جسدى كله ويجعلنى أعرق •• فهل هذا هو الشمس ••

لا اعرف ••

يقولون ان الشمس فى الســـماء ••

وهذا يزيد الأمر تعقيدا •• فأين هى السماء ؟ •

من المعروف ان البقر يستطيع ان ينظر امامه •• أو خلفه •• أو يمينه أو شماله •• لكن البقر لا ينظر لأعلى أبدا •• لا تنظر البهائم لأعلى ••

ليست هناك بقرة تنظر لأعلى وتتأمل الشمس •• لو صح ان هناك شمس •• على أى حال •• اذا كان وجود الشمس غير مؤكد • فان الشىء المؤكد هو وجود الفول •• اكلت فى الصباح قدرا عظيما من الفول •• زلطت الفول بنصف مضــغ •• توفيرا للوقت والمجهـــود وتأكدا من التهام أكبر كمية ممكنة •• بعد ذلك ارقد على بطنى على الأرض •• أجتر ما اكلته فى الصباح ••

جيج •• جيج •• جيج ••

صوت فمى وهو يمضغ •• متعة هو المضغ •• والبلع أمتع •• والأرض نظيفة •• والتراب رطب •• والظل ممتد •• والسكون تام السكون ••

اندلعت الصرخة فجأة ••

حولت رأسى ببطء ••

لا يهتز البقر ولا ينفعل ••

عادت الصرخة تشتبك بصرخة ثانيــة •• ثم اشــتعلت القرية كلهــا بالصراخ ••

ــ قتل ايلياثيل •• أغنى أغنياء بنى اسرائيل ••

لاأعرف هل كان اسمه ايلياثيل أو بنيامين أو شعورايم •• اسمه صعب فلم احتفظ به فى رأسى ••

الأمر لا يهمنا ولا يتصل بنا فلماذا نهتم •

لم نستطع أن ننام هذه الليلة من فرط الضجيج فى القوم •• اختصم أهل القتيل ولم يعرفوا قاتله ، ويبدو أن هذا القتيل كان رجلا له مركزه فى بنى اسرائيل ، ويبدو أن خفــاء قتله كان داعيا لشىء يشــبه الفتنة ••

قرر القوم أن يلجأوا لنبى الله موسى ••

سألتنى احدى الأبقار : هل ذهبت القرية لموسى •

قلت : نعـــم •

سكتنا على ذلك يومين •• ثم سألتنى فى اليوم الثالث •

ـــ ماذا قال موسى ••

قلـــت : لا أعــرف ••

قلنا نسأل •• سألنا بقرة قابلناها فى حقـــل ••

ماذا قـــال مـــوسى •

قالـــت : اســـأل لكم ••

سكتنا على ذلك يومين •• ثم صادفنا البقرة فســـألناها ماذا قال موسى فقالت نسيت أن أسأل ••

ونسينا الموضوع كله ، ثم فوجئنا ان الناس تتحدث فيه ••

عرفنا من الناس أن موسى قال لقومه •

« ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » ••

الموضوع يتصل بنا اذن •• هذا شىء يثير الاهتمام •• والاهتمام شىء والانفعال شىء آخر •• الاهتمام فى عرفنا جائز •• والانفعال لايجوز •

سألنا ـــ أى بقرة ذبحوها •

فوجئنا أنهم لم يذبحوا بقرة ••

سألنا ـــ كيف ألم يبلغهم موسى ان الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ••

فوجئنا مرة ثانية بأن بنى اسرائيل قالوا لموسى : **« قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين »** •

جرأة لا حد لها على نبى الله موسى •• لقد أمرهم أن يذبحوا بقرة ••

وكان المفروض أن يذبح القوم أول بقرة تصـادفهم •• غير أنهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة ••

اتهموا موسى بانه يسخر منهم ويتخذهم هزوا ••

ان البقر لايتصرف هذا التصرف لو كان فى مكانهم ••

استعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم •• أفهمهم أن حل القضية يكمن فى ذبح بقرة •• ان الأمر هنا أمر معجزة لا علاقة لها بالمألوف فى الحياة أو المعتاد بين الناس • ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فى الجريمة الغامضة التى وقعت •• سيضرب بنى اسرائيل القاتل بجزء من البقرة المذبوحة •• قتيل مات •• وبقرة ذبحت•• لو ضرب بنو اسرائيل شيئين ميتين ببعضهما لعرفوا القاتل •• سيستيقظ القتيل من موته ويبوح باسم قاتله •

ماهو الغريب فى هـذا ؟

معجـزة ••

نعـم معجـزة ••

ليست منطقية ولا معتادة ••

لكن متى كانت الأسباب المنطقية هى التى تحكم حياة بنى اسرائيل •• ان المعجزات الخارقة هى القانون السائد فى حياتهم ••

لقد ضرب موسى البحر بعصاه فانشق البحر نصفين وعبر بنو اسرائيل

وغرق فرعون وجنوده ••

أيندهش الناس بعد هذه المعجزة من معجزة ثانية ••

لو كان البقر مكانهم لما تصرف هذا التصرف ••

أكاد أنفعل لولا أن الانفعال لا يجوز ••

ليس استمرار المعجزات فى حادث البقرة أمرا يوحى بالعجب أو يثير الدهشـة ••

لكن بنى اسرائيل هم بنو اسرائيل •

مجرد التعامل معهم عنت •• ومجرد التفاوض معهم تعب ••

أتعبوا قلب نبيهم أتعب الله قلبهم ••

أقولها بلا انفعال ••

لاينفعل البقر •• يلاحظ ما يلاحظه بغير انفعال ••

لم تزل المفاوضات مستمرة ••

بنو اسرائيل يعودون الى موسى ••

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » ••

مرة اخرى يتحدثون عن البقرة ••

مرة آخرى يسأل موسى ربه وربهم ورب العالمين ، ويعود اليهم بالجواب •

« قال : انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر •• عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون » الكلام شديد الوضوح •• البقرة ليست صغيرة وليست عجوزا •• هى وسط بين ذلك •• كان المفروض أن يذبحوا أى بقرة متوسطة ••

لكن ماذا نفعل فى بنى اسرائيل •• انهم لا يطيعون الأمر •• لقد ذهبوا لموسى لحل القضية ومعرفة القـــاتل وهاهم يؤجلون المعرفة بلجاجتهم وتنطعهم ••

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » ••

عجيبـــــة ••

أهذا يصح يابقر •• لن نقول ياناس ••

أهذا يجوز •• ما هى القيمة التى تكمن وراء لون البقرة •• ان البقر كله لايلاحظ لونه ولا يلتفت اليه ولا يهتم به •• ماهو الشىء الخطير الذى يحتاج الى ذهاب موسى الى الله تعالى لسؤاله عن لون بقرة ••

ثم لاحظ كيف يقولون له ـــ ادع لنا ربك •• ادع لنا ربك ••

كأنه ربه وحده •• كأنه ليس ربهم •• كأنهم يتنصلون من عبوديتهم لله •• لا نظن أن بعد هذا التنطع تنطع ••

رغم ذلك •• فعل موسى الحليم الكريم ما سألوه •• علما بأن موسى رجل سريع الغضب •• لقد ثار قبل ذلك حين عاد من ميقات ربه ووجد قومه يعبدون عجلا وألقى ألواح التوراة من يده ••

القاء ألواح التوراة على الأرض تصرف خطير ••

فقد الرجل حلمه •• ما رآه يفقد الحليم حلمه وهدوءه ••

ان البقر لايعبد العجل •• فكيف يهبط الانسان من مستواه لادنى من مستوى البقـــر •

يعبدون عجـــلا !!

يعبدون زوجنا نحن البقر !!

رغم كل شيء ذهب موسى الى ربه يسأله عن لون البقرة ••

« قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » •

ظننت ان المسألة قد انتهت •

قتل موضوع البقرة بحثا ودرسا وتنطعا ولجاجة وتســويفا وتأجيلا وسوء ادب واستهتار ••

قتل الموضوع قتلا •• ورغم ذلك ، مازال عند بنى اسرائيل مزيد من اللاجاجة والتنطــع ••

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » •

بعد كل ما حدث لم يتبينوا ماهى •• بعد كل الأوصاف السابقة لازالوا لا يتبينون •

مدهش ••

يكاد جنبى يطق وتنفجر بطنى وينشق كبدى ••

رغم ذلك •• عادوا يقولون لموسى •

« ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون » ••

عاد موسى الحليم الكريم يسأل ربه •• وعاد يقول لهم ••

« قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيهــا » •

انطبقت الأوصاف على ••

ماذا تظن بنى اسرائيل قالوا ؟•

« قالوا الآن جئت بالحق » ••

كأنه كان يلعب قبلها معهم ••

كأنه لم يكن قد جاء بالحق من أول كلمة لآخر كلمة ••

أكاد أفقد طبيعتى وذاتى وانفعل ••

حين انتهت مفاوضات البقرة •• كنت أنا البقرة المقصودة أكاد أطق من جنابى الأربعــة ••

روحى فى أنفى من الضيق ••

مت قبل موتى من لجاجة بنى اسرائيل وتنطعهم ••

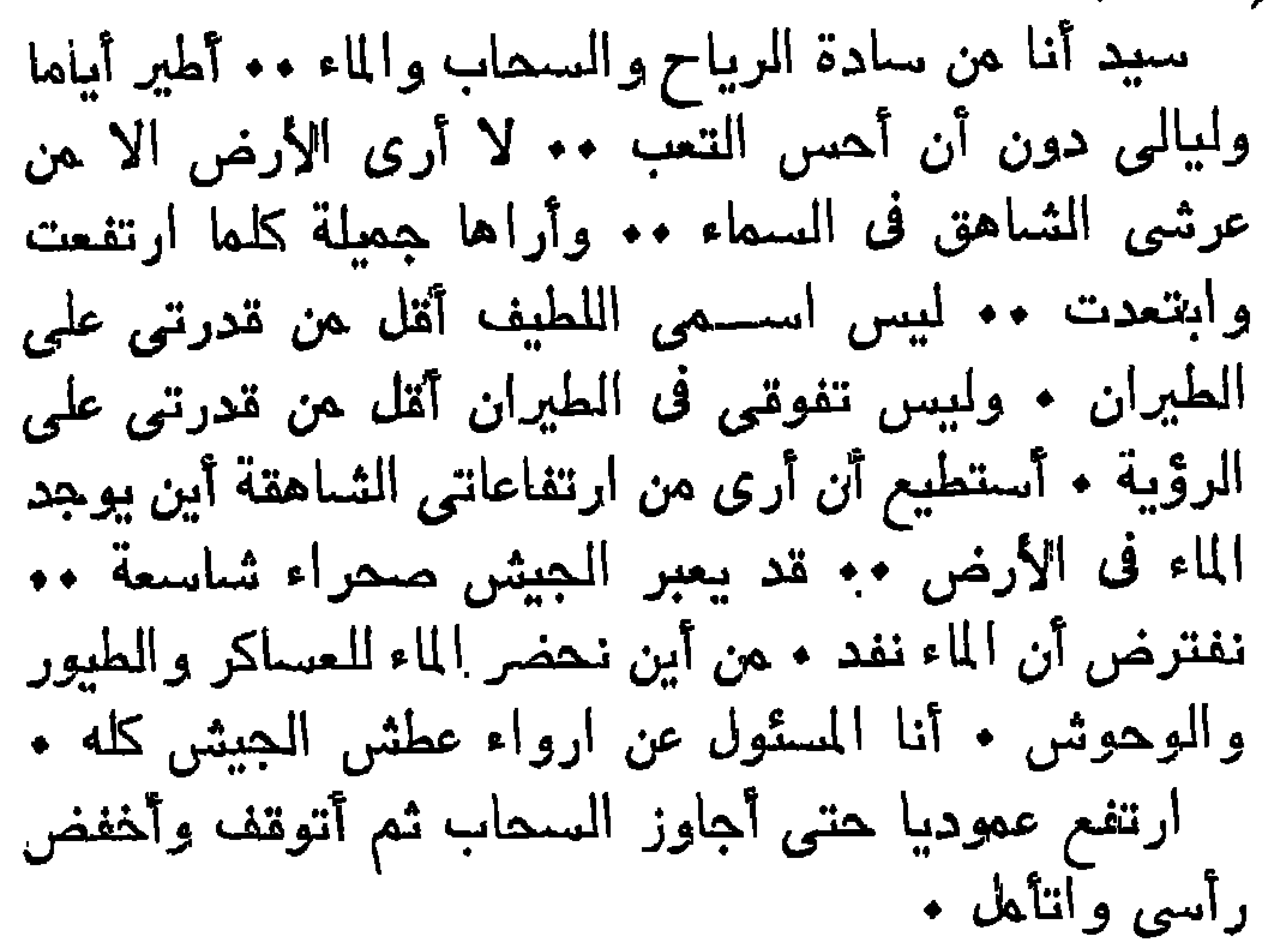
أسير نحو قدرى ومصيرى ••أسير نحو السكين وانا أهز ذيلى راضية••

كلما تصورتهم على موائد المفاوضات مع نبيهم موسى •• كلما تذكرت لجاجتهم وتنطعهم ساءلت نفسى •

ـــ اذا كانت هذه صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى فكيف تكون صورتهم على موائد المفاوضات مع غيره ؟



هدهد سليمان



اسمى « مارهالا » •

اسم لطيف اختارته لى « هيدان » ••

سيد أنا من سادة الرياح والسحاب والماء •• أطير أياما وليالى دون أن أحس التعب •• لا أرى الأرض الا من عرشى الشاهق فى السماء •• وأراها جميلة كلما ارتفعت وابتعدت •• ليس اســمى اللطيف أقل من قدرتى على الطيران • وليس تفوقى فى الطيران أقل من قدرتى على الرؤية • أستطيع أن أرى من ارتفاعاتى الشاهقة أين يوجد الماء فى الأرض •• قد يعبر الجيش صحراء شاسعة •• نفترض أن الماء نفد • من أين نحضر الماء للعساكر والطيور والوحوش • أنا المسئول عن ارواء عطش الجيش كله •

ارتفع عموديا حتى أجاوز السحاب ثم أتوقف وأخفض رأسى وانتأمل •

أحدق بنظرى الثاقب فى الأرض • تخترق نظراتى سطح التربة الرملى وتنفذ الى ما وراءه • تخترق الحجارة الجيرية وتنفذ الى ما وراءها •• تنزل نظراتى فى الأرض وتغوص •• استخدم أشعة كونية للعثور على الماء •• اذا عثرت عليه هبطت من أعلى هبوطا عموديا وحددت المكان •• أشير بمنقارى الى المكان الذى ينبغى ان يبدأ الحفر فيه •• ويبدأ الحفر •

ينتهى حفر البئر فأهبط واستحم وأشرب • أخرج من البئر مبلل الريش فيشرب الجيش بعدى كله • لست فى حاجة لتقديم نفسى الى القــارىء ••

فهمتم أننى هدهد سليمان •• أشهر من نجوم السماء •• أعـرف ذلك • أعطانى الله ريشا ملونا حول رأسى لم يعطه أحدا من الطيور•• الطاووس فى أحسن حالاته لا يرتدى ثيابا مثل ثيابى •• ولا يؤدى جزءا على ألف من مهامى الخطيرة العديدة التى أؤديها • الطاووس مخلوق فارغ •• هو دائما معجب بنفسه دون مبرر مفهوم •• أما أنا فمتواضع رغم أهميتى الشديدة •• أقول لكم سرا •• أكاد أحيانا أحس اننى أهم من قائد الجيش •• راودنى هـذا الاحساس مرتين أو ثلاث مرات لا أنكر •• لكننى نحيته جانبا ايثارا للسلامة واتقاء لشر المتاعب•

اعترف أن سليمان انسان له هيبته •• أعترف اننى أخاف منه •

رغم خدماتى العظيمة التى أؤديها له •• أرانى أخاف أحيانا منـه •

لم أتحدث عن أخطر مهامى فى خدمته • آثرت أن أحتفظ بأهم أعمالى الى النهاية • هذه طريقتنا التقليدية نحن العاملين فى المخابرات •• لانقول أهم شىء الا فى نهاية الحديث ••

نعم •• أنا « مارهالا » هدهد سليمان ورئيس المخابرات فى جيشه ••

ليست المخابرات مسـألة سهلة • تم اختيـارى من بين عشرة آلاف هدهد •• امتحنهم سليمان جميعا فوجدنى أذكاهم وأقـدرهم على تحصيل المعلومات ونقشها فى ذاكرتى والاحتفاظ بها حية طرية •

وتم اختيارى يومها ••

كان يوما لا ينسى •

ملأنى الزهو •• لا أنكر ••

لا أنكر أيضا اننى أحسست بخطر المسئولية • ان حياة الجيش كلها أمانة فى عنقى الجميل الذى يحيطه تاج الهى من الريش الملون •

لا تتحرك الجيوش الا اذا أعطيتها بنفسى اشارة التحرك الخضراء، أنا الذى أحصل على المعلومات ، وبغير المعلومات يبدو أعظم الجيوش مثل عملاق أعمى يستطيع أى طفل أن يكبه على وجهه ويهزمه •

المعلومات هى حياة الجيش •• هى عينه الخفية التى يرى بها عدوه •• وينتصر دائما فى الحروب من يرى أكثر • من يدرى عن عدوه أكثر•

مهمتى أنا أن أعرف ••

وأنا دائما أعرف .. صحيح انني أعمل بكل أعصابي ، لكنني أيضا ألعب بكل حيويتي .. هناك فرق بين أوقات العمل الرسمية ، وأوقات الفراغ الحرة ، أوقات العمل ملك لسليمان وجيشه . أعمل فيها حتى النهاية ، بعدها لا أهمل التسرية عن نفسي . هذا حقي أيها السادة الطيور .. ليس من حق أحد أن يقول لي أين كنت .. انهيت أعمالي وكنت ألعب .. ما الذي يعنيك أنت أين كنت .. كنت أغازل هدهدة جميلة هناك ، أو كنت نائما فوق شجرة ، أو كنت آكل وأشرب .. ماذا تريدون مني مادمت أؤدي واجبي على الوجه الأكمل .

ليس دمي ثقيلا مثل الأسد ، ولست متصنعا وقاره الكاذب وحركته البطيئة .. أعظم ما أكرهه أن ينتقل أحد من عمله الى بيته فينقل معه احساسه بالاهمية ويعامل زوجته مثلما يعامل مرؤوسيه .. بكبرياء وعظمة . أعتبر ذلك دليلا على نقص النضوج .

العمل عمل واللهو لهو .. ولن تجد أحدا يعرف اللهو حقا الا اذا كان يعرف العمل حقا . الخائب خائب في كل شيء . في العمل واللعب . هذه عقيدتي الثابتة . طبعا أثارت طبيعتي حولي عديدا من المتاعب وجندت لي أعداء كثيرين . لاأنكر أن لي أعداء أقوياء .

الأسد مثلا أحد أعدائي القدامى .. المفروض أن الأسد يعمل جناحا أيمن في الهجوم في جيش سليمان .. تتبعه أسود ونمور عديدة .. نعرف يا سيدي الأسد أنك أسد .. انك قوي .. انك ملك الحيوانات لكنك يا سيدي الأسد مهما سموت لاتستطيع أن ترتفع عن الأرض مثلي. أنا الطيران الطائر الذي يقول لك في أي اتجاه تمضي وبأي سرعة تنطلق وأي هدف تنقض عليه ..

يثير الأسد أعصابي كلما تذكرته ..

اعتاد الأسد كلما تغيبت أن يسأل سؤالا يبدو ظاهره البراءة وباطنه الخبث .. انه يقول : — أين ذهب الهدهد .

وعادة يسمع سليمان كلمة الأسد . يزأر الأسد اذا تحدث كأن من حوله (طرش) لا يسمعون . مخلوق سوقي .

أعرف أن الأسد يتعمد احراجي بكل الوسائل .

لا تتوقف عداوته عند تنبيه الملك سليمان الى غيابي ، وانما يتطفل

على أحيانا بالاسئلة • سألنى ذات يوم •
— لماذا لم تتزوج حتى الآن •
قلت : أرجو أن تعنى بشؤونك الخاصة •
قال الأسد : أسألك سؤالا مجردا فماذا أغضبك •
قلت : يغضبنى أن هذه مسألة شخصية بحت • هل تحب أن أسألك أنا لماذا تزوجت •

ضحك الأسد ضحكة هزت جدران الخيمة التى نعيش فيها فازداد نفورى منه • لماذا لا يهتم بشؤونه الخاصة ويستحم • ان رائحة الأسد تزكم الانوف ، وما كلمته يوما والا وأنا أدير منقارى بعيدا عنه•

• • • • •

استدعانى الملك سليمان ذات يوم •
نظرت الى الشمس فرأيتها تتهيأ لرحلة الغروب •

يقترب موعد صلاة الملك سليمان ، فلماذا يستدعينى الآن •• المفروض أن عملى ينتهى بعد قليل •• ذهبت اليه مهموما ، أخشى ما أخشاه هذا الاستدعاء المفاجىء •• أجهل ما يريدنى سليمان من أجله ، ولهذا أخاف • لو كنت أعرف لما هزنى الخوف • هذه قيمة المعلومات والمخابرات • طرت نحو بيته •• وقفت ونقرت كريستال الشباك •• كل شبابيك سليمان من الكريستال الملون بينما اطار النوافذ نحاس لامع عليه نقوش من الفضة •• يغوص الجن فى أعماق البحار لاحضار الرمل الناعم ، ثم يشعلون تحته أحجارا وأخشابا حتى ينصهر الرمل ويذوب ويصنعون منه الزجاج بأنواعه •• يعجبنى سليمان •• نبى صالح وملك مهيب ، ورجل يعرف كيف يختار ثيابه وكلماته • ليس فيه من وجهة نظرى غير عيب واحد فقط • ذكاؤه الحاد •

أحيانا تتكلم معه فيخيل اليك أنه يقرأ أفكارك •• أو يقرأ ما بين سطور الكلمات التى تقولها والتى لا تقولها •• وفى مثل هذا الحوار الذى يجرى بين طرفين غير متكافئين ، لابد أن تنهزم •• وأنا لا أحب أن انهزم ••

مخلوق أنا أصلا للانتصار •• سمح لى الملك سليمان بالدخول • دخلت الحجرة •• كانت احدى زوجاته تجلس عند قدميه •

حنيت رأسى بتحية عميقة وقلت : السلام على النبى الملك سليمان الحكيم •

أعرف أن هذه هى الألقاب التى يحبها سليمان ••

قال سليمان ساخرا : السلام على الهدهد الذى يعشق اللعب أكثر مما يعشق عمله •

كبستنى الملاحظة أمام زوجته • حنيت رأسى ونفشت ريشى الملون فانعكست عليه أشعة الشمس وظهر التاج الذى وضعه الله على رأسى أجمل من التاج الذى صنعه الجن لسليمان •• فهم سليمان مغزى الحركة وابتسم ••

قال جادا : لم تقدم الى تقريرك الاسبوعى منذ ثلاثة أسابيع •

قلت – سيدى القائد •• ليس هناك جديد على الاطلاق •• يعمل الجن بمنتهى الاخلاص ، ويشتغل الجند بأقصى الطاقة ، وتمضى الأحوال هادئة فى المملكة •• وقد فهمت من حديثك أنه لا داعى لتقديم تقرير اذا كان كل شىء فى موضعه •

قال سليمان وهو يقطب : انت لا تفهمنى يا مارهالا •• لماذا تتصور أن عملك يقتصر على كتابة التقارير •• هذا أسلوب تقليدى فى عمل المخابرات •• المفروض أن تعطينى احساسا بأنك تبتكر فى عملك ••

قلت : حدثنى الملك النبى قبل ذلك أنه راض عن عملى •

قال سليمان برفق : تعرف ضعفى ازاءك يامارهالا •• تعرف اننى أحبك •• راض أنا عن ذكائك ولست راضيا عن عملك • لم تقدم الى فكرة عبقرية تجعلنى أحس أنك تستحق دخول التاريخ •• مازال عملك عاديا ••

انحدرت قطرة من العرق على جبهتى •• أحسست الحرج وفكرت فى حبيبتى هيدان •• قال سليمان كأنه يقرأ أفكارى :

– هل تعرف انثى من بنى جنسك تحمل اسم هيدان •

قلت – نعم

قال – سمعت أنك تنوى الزواج منها •

أحسست أن سليمان يورطنى فانطويت على الصمت ، أعرف أنه يعرف رأيى فى الزواج •

عاد سليمان يقول ــ لو كنت تعطى لعملك نصف عبقريتك فى اللهــو لصار لك شأن عظيم •

أشار بيده أن أنصرف فانصرفت مهموما مثقلا •• حائرا بين سليمان وهيدان • تقول لى : أنت دائما مشغول ، ويقول سليمان لى : أنت دائما تلعب • وقد طالت حيرتى بينهما ، ولم أعرف كيف أرضيه أو أرضيهــا • هى مأساة العباقرة فى كل الأزمنة والعصور ••

انصرفت اليهـــا •

كانت خارجة من النهر بعد أن استحمت • لم تكد ترانى حتى فردت جناحها الأيسر • ألقيت بنفسى فى أحضانها ووضعت رأسى على رقبتها وتنفست • تطاير الريش الجميل حول عنقها ••

سألتنى وهى تغمض عينيها : سمعت أن سليمان يريدك •

قلت ــ قادم لتوى من عنده •

قالت بغيظ ــ لو كنت تعطينى نصف ما تعطيه لعملك لصرت أســعد هدهدة فى الدنيا •

قلت بضيق ــ قال سليمان عكس ما تقولينه الآن • يعطلنى الحب عن النجاح فى العمل ••

قالت بدلال ــ سليمان يتجنى عليك ويظلمك •

قلت بحسم ــ غير صحيح •• أنت وحدك الظالمة يا هيدان •

قالت باكية ــ أنت دائما مشغول ، دائما مسافر ، دائما فى اجتماعات مع مرؤوسيك • أنت اما ذاهب الى سليمان واما قادم من عنده • أين مكانى فى حياتك •• أين أنا فى قلبك •

قلت فجأة ــ اسمعى يا هيدان • أنت أجمل هدهدة فى الدنيا ••وعندما أموت سوف أحلم حلما واحدا يبدأ بمنقارك وينتهى بمنقارك • لقــد اعطتنى كلماتك فكرة عبقرية • تقولين اننى دائما أسافر • لم أســافر منذ فترة طويلة • هذا سر خمولى فى العمل •• سأسافر اليوم•• سأتجه

جنوبا الى جبال اليمن • قلبى يحدثنى اننى سأعود بعمل طيب ، وهناك أيضا بدل السفر • •

• • • • • • • • • • •

أطير مرتفعا محلقا متعجبا من غرابة الاناث •• تقول كل هدهدة عرفتها ماتقوله هيدان • غير أننى أميل الى هيدان • لو كانت أقل غيرة لتزوجتها • أخشى أن تفسد الغيرة حياتى • ما أجمل مشهد الأرض من ارتفاع شاهق • تبدو الصحراء مثل بساط من الذهب ، ثم يجىء البحر مثل ثوب من الفيروز الازرق ، ثم تجرى الحقول الخضراء تحت صدرك ، أحس بيد الجلال الخالق وهى تسوق السحاب الى قمم الجبال الملونة: يصطدم السحاب بالقمم ثم يهبط الثلج مثل قبلات بيضاء •

خشع قلبى خلال طيرانى السريع •••• رحت أسبح بحمد الله تعالى خلال طيرانى فازداد ارتفاعى دون أن أحس أو أشعر •• انهيت تسبيحى • فقلت اتأمل الارض بحثا عن المياه •

عثرت على ثلاث مناطق للمياه لم تكتشف بعد فى صحراء مهجورة•• حددت فى ذهنى مناطق المياه وزدت سرعتى •• أليس مدهشا أننى أطير دون أن أعرف سر الطيران ••

ها هى أسوار سبأ ••

الاسوار بيضاء والطرق واسعة والحقول كثيرة والقصور عديدة وهناك حرس كثيف فى الطرق ، وثمة معبد هائل مكشوف تملأ الشمس ساحته

رجحت فى نفسى انهم أغنياء وأقوياء من شكل مدينتهم •• ان طرقهم مستوية لا تعرف المطبات ، وأسطح المنازل نظيفة وتمتلىء باصص الزرع •• اخترت شجرة عالية فى أكبر قصر فى المدينة ووقفت ••

رأيت هدهدة لطيفة •

حييتها باحناء رأسى وأدرت وجهى عنها • رحت أفكر فى طريقة لحملها على الكلام • لم استغرق وقتا طويلا فى التفكير ••

هوايتى المفضلة حمل الآخرين على الكلام •

قلت وأنا أنفض ريشى فجأة ــ اليست هنا انهار قريبة •

قالت الهدهدة ــ هل أنت غريب •

قلت بحذر ــ سائح فى أرض الله • اليست الارض ملكا لله

قالت الهدهدة ــ وهى تقترب من غصنى أكثر ــ الارض هنــا ملك للشمس • شعرت بحاسة المخابرات الخفية أن فى الجو رائحة عمل •• اقتربت منها قائلا بود •

ــ كيف تكون الارض ملكا للشمس ايتها الهدهدة الوديعة •

قالت الهدهدة بسذاجة وصراحة ــ هنا يسجد الناس للشمس ••

فاجأتنى كلمتها وقفز سليمان لذهنى على الفور •• أخيرا عثرت على قضية خطيرة •• قضية لم أكن أحلم بها قط •• ناس يسجدون للشمس •• اليست هذه خيانة عظمى لقيم الله •• اليس سليمان نبى الله وسيفه فى الارض •• تدخل القضية فى اختصاصه اذن •• احسست اننى قــد صادفت يومى السعيد على الارض •• خبطة هائلة ••

ملأت صدرى سعادة غامرة وأردت أن أطير واصرخ من الفــرح وأفرد تاج الريش فوق رأسى وأقبضه •• ولكننى أمسكت أعصابى كأى رئيس عتيد للمخابرات ••

التفت الى الهدهدة متمتما بهدوء ولا مبالاة :

ــ لطيف جدا •• لطيف جدا ••

سألتنى البلهاء ــ ما هو الشىء الذى تراه لطيفا فى ••

قلت مجاملا ــ طريقتك فى نطق الكلمات •• اننى هدهد يسافر كثيرا ويرى كثيرا ويعرف كثيرا •• لم أر مثلك هدهدة تنطق الكلمات بهــذه الوداعة •

ارتعش الغصن الذى تقف عليه ، أصاب السهم هدفه ، رأيتها تفــرد اجنحتها بحركة تبدو غير مقصــودة •• كانما لتنفض عنها التــراب • أرادت أن ترينى رشاقتها •• لا بأس بها على أى حال • لم أكن فى حالة تسمح لى بالتفكير فى الحب •• ما هى الخطوة التالية • أريد أن أعرف أكبر قدر من المعلومات عن هذه القضــية على الفــور •• لكننى لا أستطيع أن ابدأ استجوابى لها كى لا أثير شكوكها •• يجب أن يبدو كل شىء طبيعيا كجزء من حديث عفوى عن الطقس أو الشجر أو الطعام أو الانهار •

فردت تاج الريش فوق رأسى ونفشت صدرى وصفقت بأجنحتى وأريتها كم انا ساحر وجـــذاب •• واقتربت الهدهدة من الغصن الذى أقف عليه أكثر •

قالت ــ لم تحدثنى عن نفسك • من أين أنت قادم • الى اين انت ذاهب • هل عندك هداهد صغيرة •• ماذا تأكل • كيف تجد طعامك • اسمك • متى ولدت •

آه •• أراها هى التى تستجوبنى •• قررت آن الجأ لأساوب الهجوم الساحق •

فردت جناحى الايمن وضربت الغصن الذى تقف عليه ضربة قوية مفاجئة فكادت تسقط من فوقه • مالت قليلا الى الأمام واختل توازنها فتلقيتها بجناحى الايسر • ورأت نفسها تقف على نفس الغصن الــذى أقف فوقه وقد اقترب منقارى من منقارها ••

لو رآنى سليمان لظن أننى ألعب ، ولو رأتنى هيدان لتصورت أننى أخونها ومزقت الهواء بصرخاتها الغاضبة •• خطأ •• هذه النظرة خطأ •• هو عمل نؤديه من أجل مهنتنا •• وكل شىء يهون اذا تعلــق الامر بالمعلومات • عرفت منها عدد الناس فى سبأ • وحدثتنى عن عدد الجنود والضباط • أخذتنى لمخـــازن أسلحة الجيش فالتقطت لها صورة بعينى وأودعت الصورة فى عقلى • أرتنى مداخل المدينة ومخارجها وأنهـــارها التى تشرب منها • شاهدت حقول الفلاحين ومصانعهم وبيوتهم •أخذتنى من جناحى الى معبد الشمس الذى يسجد فيه الناس للشمس • ورأيت قرصا عظيما من الذهب المحلى بالجواهر • وهو قرص تنعكس عليــه أشعة الشمس فيبدو وهجه يخطف البصر •• ولا أنــذكر أن ضحكة أفلتت منى ونحن نشهد معبد الشمس فنظرت الى الهدهده باستغراب• أخذتنى لقصر الملكة التى تحكمهم فرأيت امرأة على قدر غريب مــن الحسن •• لم أر لها مثيلا فى قصر سليمان • ولاحظت أن ملابسها تغطى قدميها وتنسحب وراءهـــا وهى تمشى ، وقدرت انها امرأة متحشـــمة محافظة ، ثم افهمتنى الهدهدة أن فى احدى قدميها عيبا فهى تخفيهما معاً • لم تكن متزوجة •• ولكنها تملك شخصية امرأة تشبه شـــخصية الرجال •• رأيتها تعامل رؤساء قومها ووزراء مملكتها ومستشاريهامعاملة حاسمة •

عيبها الوحيد هو سجودها للشمس • رأيتهـا وقومهـا يسجدون للشمس •

كان عرشها آية من آيات فن النحت العظيم •• سـجلت فى ذهنى أوصاف عرشها الكاملة •

انتهى ما جمعته من معلومات • مكثت خمسة أيام فى عاصمة المملكة وقراها البعيدة • عرفت طول الطرق واتساعها وعرضها وقدرتها على احتمال المركبات الحربية لسليمان ، بعد أن قدرت فى ذهنى أنه ربمـا يريد مهاجمة المملكة •

استطعت تجنيد الهدهدة اللطيفة التى التقيت بها فى سبأ • دون أن أكشف لها شخصيتى •

أثارت بعض المتاعب فى البداية حين لاحظت أن اهتمامى بمملكة سبأ أكثر من اهتمامى بها ، ثم أفهمتها اننى هدهد فضولى هوايته طـرح الاسئلة • اطمأننت منها الى ان أحدا من الناس فى سبأ لا يعـرف لغة الطيور والوحوش والحيوانات مثل سليمان •• ورغم ذلك لم أحدثها عن حقيقتى أو مهمتى • من يدرى • الاحتياط أفضل ••

بعد انتهاء مهمتى تماما فى سبأ • فكرت أن ألهو قليلا • أليس هذا حقى •• انتهى عملى على الوجه الاكمل فأى ضرر فى قليل من اللهو •

قلت لزميلتى وتلميذتى الهدهـدة : نريد مكانا ريفيـا فيه ديدان فى الارض ونهر قريب • وصحبتنى لشاطىء ريفى جميل ••

قضيت ثلاثة أيام تشبه الحلم •• هدوء مطلق وريف وادع وخير عميم وصمت مريح للاعصاب • رتبت المعلومـات فى ذهنى أول يـوم وصلنا فيه ثم قضيت اليومين التاليين مع الهدهدة • لا شىء يريح عقل الهـدهد المرهق مثل ثرثرة فارغـة يسمعها من هدهـدة تحبه • كانت تسألنى لماذا لا نسـافر الى مصر • يقولون ان هنـاك ريفـا رائعـا يمتلىء بالطمى وحظائر تحفل بالطعام • قلت لهـا ردا على ثرثرتهـا : ان فى مصر زحاما من الهداهد ومشكلة اسكان هدهدية وأنا لا حب الزحام والضجيج •

كنت أقول أى كلام لأصد نفسها عن الذهاب • سألتنى يوما ألم أفكر فى الاستقرار والزواج ؟ وما هو الشىء الذى احلم به أفضل من ذلك ؟ •

لم أقل لها هل تتصورين أننى هدهد صايع بلا عمل •• لم أقل لهـا أن ورائى مهام خطيرة فى جيش سليمان •

تذكرت سليمان فى اليوم الثالث • قلت لنفسى ماذا لو كان احد الجن فى جيشه يتمشى قريبا من هنا فرآنى أعبث وألهو وأستمتع بهذا المصيف الريفى الهادىء ••

ماذا لو نقل الصورة لسليمان •

يذبحنى سليمان لو عرف •

قلت للهدهدة فجأة : سأرحل غدا •

قالت : خذنى معك •

قلت : ليتنى أستطيع •

قالت : لماذا لا تستطيع •

قلت : سأعود اليك مرة ثانية •

بدأت تبكى وهى تلصق رأسها بصدرى فقلت : دموعك تمـزق قلبى ولكننى مضطر للرحيل وسوف تفهمين يوما لماذا أرحل • لقد أحببتك ولكننى يجب أن أسافر •

قالت يائسة منهارة مهددة : سأتوقف عن تناول الطعام والشراب لو ذهبت غـدا •

قلت ـــ بل أنا الذى ينتحر اذا مكثت غدا • أنت لاتعرفين سليمان•

قالت ـــ من يكون سليمان ••

قلت ـــ أخى الكبير وسيدى وتاج رأسى •

هناك مشكلة عائلية تستوجب سفرى غدا • أريد أن أسافر وفى ذهنى صورتك وانت تضحكين •• ابتسمى أيتها اللطيفة •• ابتسمى •• لم أستطع أن أنام ليلتها ••

فى منتصف الليل تركت فراشنا الدافىء وسط أغصـان الشجـر •• وطوت نحو السماء بلا صوت ••

قلت لأجنحتي : أقصى ارتفاع وأقصى سرعة • نمت أثناء الطـريق فطرت طيرانا آليا •• وصلت الى خيمة الطيور فى جيش سليمان •

وصلت فاذا الدنيا كلها مقلوبة على •

لم أكد أدخل خيمة الطيور حتى أسرعت نحوى عشرات الطيور فزعة مرتعدة تسأل ــ أين كنت • أين كنت •

تشاءمت من طريقة الاستقبال وقلت مدعيا رباطة الجأش ــ ماذا حدث ••• ولماذا تصرخون هكذا ؟

قالوا خرج الملك سليمان فى جولته على الجيوش •• مر على الجن، ومر على الوحوش •• ثم جاء الى خيمتنا •• ناديت العصفور ــ وكان يعمل مديرا لمكتبى ــ وسألته ماذا حدث • قال حدث ما قالوه لك • جاء الملك سليمان •

« وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهـدهد أم كان من الغـائبين • لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » •

ارتعشت عظامى فتظاهرت بالثبات وسألت •

ــ هل قال سليمان كل هذه التهديدات •

قال العصفور ــ قالها كما نحكيها لك بغير زيادة وبلا نقص •

قلت للعصفور ــ ماذا كان ردك أنت •

قال العصفور ــ أردت أن أقول انك فى مهمة ولكن منقارى كان يرتعش ويصطك فلم أستطع أن أكمل الكلام •

قلت لمدير مكتبى ــ لاتخش شيئا ••• مركزنا ثابت وقد كنت فى مهمة • ماذا قال أعدائى عنى وكيف استغلوا الموقف •

قال العصفور ــ برزت أنيابهم جميعا وقال كل واحد منهم كلمة كسم الثعبان • قالوا أنت طيب ولطيف ولكن • بعد كلمة لكن الحقوا بك نقائص

الدنيا كلها ياســيدى ، واتهموك باللعب والاهمــال •• نحن فى مأزق يا ســيدى •

قلت ــ لاتهتم •• سأتخلص من المأزق •

تظاهرت بالثبات ورحت أتمشى ولكننى وجدت نفسى ســأقع مغشيا على ، كنت أرتعش ولا أعرف كيف يستقبل سليمان قصتى عن سبأ •

ربما لايصدق • ربما تصور أننى أختلق له قصة وهمية لتبرير غيابى ••

وصلت هيدان ممزقة الريش باكية • ارتمت على وصرخت •

ــ أين كنت • سليمان يهدد بذبحك •• وهو غاضب أشد الغضب • كان الموقف دقيقا • ان هدهدتى الحبيبة مرعوبة •• صرخت فيها أن تكف عن البكاء فكفت • قلت لها آمرا •• من يظننى سليمان •• يسىء فهمى هذا الملك العظيم ويتصور اننى ألعب ، سأحاسبه على رأيه فى أفضــل جنوده • نفشت صدرى وقلبى يرتعش من الداخل •

سكنت هيدان واطمأنت من وثوقى •• ومضيت بتراب الســفر نحو قصر سليمان • مضيت وقد تنازعتنى الاحاسيس المتضاربة المختلفة •• كنت خائفا وحانقا ويائسا وآملا ومرعوبا وشجاعا فى نفس الوقت•قيل لى أن سليمان يأكل • وقد أمر الا يدخل عليه أحد•قلت للحارس:تنح عن طريقى فلم آت هنا لالهو أو ألعب••معى أخبار لاتحتمل الانتظار لحظة••

لم يفهم الحارس ما قلته له • لايفهم لغتنا أحد غير سليمان • سمع النبى وهو يأكل صرخاتى الغاضبة فأمر أن أدخل عليه •

دخلت غرفة الطعام ووقفت فى الطرف الثانى من المائدة بعيدا عن يده •• قلت لسليمان وهو لم يضع سكينه بعد :

« أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين » •

لم أكد أقول لسليمان « أحطت بما لم تحط به » حتى أحسست اننى دخلت التاريخ • من الذى جرؤ قبلى على قولها له • ومن الذى سيجرؤ بعدى على قولها له •

لا أحـــد .

اننى أقول لسليمان بنبرة هجومية : أننى أعرف مالا تعرف .

هى جرأة دفعنى اليها اليأس والخوف .كنت مضطرا لهذا الاسلوب. أفضل طرق الدفاع أن تبدأ بالهجوم . يعلـــم الله ـــ خالق سليمان وخالقى ـــ اننى كنت أرتعش من الداخل وأنا أقولها له . وضع سليمان سكينه فى الطبق الذهب وانحنى على المائدة وأطلت من عينيه نظـــرة دهشة . عدت أقول له قبل أن يفيق من دهشته :

« انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » .

كان سليمان يتابع ما أقول بدهشـــــة فى البداية ، ثم بغضب ، ثم بدا على وجهه الاهتمام . أدركت أنه يصغى بعمق . قلت استغل طـــوق النجاة الممدودة فانشأت أتحدث **« ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الاهو رب العرش العظيم »** .

كانت هذه الجملة الأخيرة أصـــلا من كلمات سليمان التى يقولها للناس وهو يدعوهم الى الله . وقد وجدت المقام مناسبا للاستشهاد بها فى حديثى عن سبأ . أنهيت كلامى وانتظرت .

نكس سليمان رأسه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وراح يفكر .. وساد صمت . ارتفعت دقات قلبى حتى خيل الى أنها تملأ فراغ القاعة الهائلة وتكاد تزحزح الجدران من مكانها .. أخيرا رفع سليمان رأسه وتحدث **« قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين »** .

أحسست أن ضغط دمى يعود لحالته الطبيعية .. لقد نجوت مؤقتا .. أنشأت أتحدث بسرعة . قلت لسليمان كل ما جمعته من المعلومات عنها .. حدثته عن عرشـــها الهائل الذى يعتبر تحفة فنيـــة من تحف الصناعة الذهبية . حدثته عن معبد الشمس الذى يقيمون فيه شعائرهم ويســـجدون .

حدثته عن عدد قوات المملكة والجيش واستعداداتهم • باختصار ، وضعت أمام ذاكرته كل ما جمعته من المعلومات •

أمر سليمان باحضار ورقة وقلم •• كتب شيئا فى الورقة ثم أغلقها ومدها الى • وقال :

« اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون »
طرت من نهاية المائدة والتقطت كتاب سليمان بمنقارى ولويت عنقى وتهيأت للرحيل ••

تحسست الخطاب بمنقارى وقلت لسليمان •

— سيدى القائد •• الرحلة طويلة وتيارات الهواء فى أعالى الجو قد تمزق ورق الخطاب • اقترح أن نضعه فى غلاف ذهبى يقيه الهواء •

امر سليمان بصنع غلاف من الذهب للخطاب • وأمرنى أن أحضر فى الصباح لاستلامه وبدء المهمة •

كانت أمامى ساعات كاملة حتى يجىء الصباح •• خرجت من قصر سليمان مزهوا أحس أننى نجوت •
سألنى مدير مكتبى (العصفور) — ماذا حدث يا سيدى الهدهد • أراك قد نجوت • قلت بكبرياء أوقفه عنــد حده — اهتم بعملك أنت • هل رأيتنى مهددا لتقول أننى نجوت • سألتنى هيدان بلهفة — ماذا قال لك سليمان وماذا قلت له •

قلت لها برصانة — هذه أسرار عليا فاهتمى بريشك الممزق •

مررت على أعدائى جميعا • مررت على الشامتين بنا ، كان الأسد قد قال كعادته كلمة رديئة فى حقى حين تحدث سليمان عن ذبحى •• قال الأسد بعد أن غادر سليمان الخيمة : الهدهد فعلا يستحق الذبح •
ها قد جاءت فرصتى لأرد له تحيته ••

سألنى الأسد بصوته الجهورى السوقى — أين كنت يامارهالا ••

قلت للأســد : متى كان قادة المخابرات يحدثون الجند أين كانوا

أنت جندى أيها الأسد •• أنت مجرد قوة يوجهها عقل آخر •• اهتم بشؤونك وستعرف حين تصدر اليك الأوامر بالحركة أين كان مارهالا • كنت أختال مزهوا وقد أغلقت فمى تماما • لم أقل لاحد ولم يعرف أحد ماذا دار بين سليمان وبينى • تركت كل واحد يحفر فى ذاكرته ويجهد نفسه • ومضيت صامتا يحف بى جو من الغموض والخطورة • قلت لكم ان مهنة المخابرات مهنة شاقة •

انتهى غلاف الخطاب فحملته وطرت به الى سبأ • دخلت غرفة نوم الملكة ووقفت على أحد النقوش البارزة فى السقف وأسقطت الخطاب عند رأسها • استيقظت بلقيس •• عيناها جميلتان حقا •• ولكنها تعبد الشمس للأسف • فتحت الملكة الخطاب وقرأته • رأيت من مكانى فى السقف أن قلبها يدق بعنف • لاأعرف حتى الآن ماذا قال سليمان لها• دقت ناقوسا الىجوار فراشها فحضر ثلاثةمن الخدم ،أمرتبعقداجتماع للوزراء وممثلى الشعب على الفور • راحت تتلفت حولها لتعرف من أين جاءها الخطاب ••التصقتأكثر بالسقفكىلاتراني •دخلت هدهدتى السبئية الحجرة •• طارت نحوى وهى تبكى وتصرخ •

— أين أنت يامارهالا •• دخت عليك يا حبيبى فأين أنت • ماذا تفعل فى مخدع الملكة •• هل تبحث عنى هنا •• ما الذى جاء بك بهذه السرعة • هل حللت المشكلة العائلية •

قلت لهدهدتى بحسم — اصمتى قليلا فان وراءنا عملا أهم •

ألقت الهدهدة بنفسها على وراحت تقبلنى • ونظرت بلقيس الى السقف فرأتنا معا •• تأملتنا قليلا ثم نهضت مسرعة تأخذ حمام الصباح • كان واضحا أنها مشغولة تفكر فى خطاب سليمان •

مكثت فى سبأ يومين • وعدت طائرا بأقصى ارتفاع وأقصى سرعة • وجدت سليمان يتفقد جيشه •• قلت له : هل تمد الى يدك أيها الملك لأستند اليها فاننى مجهد من الطيران •

مد الى سليمان يده فوقفت عليها • سألنى عما تم فى أمر رسالته • قلت له ألقيتها على الملكة • فاستدعت على الفور وزراءها ورجالها وممثلى شعبها و ••• « **قالت يأأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم • انه من**

سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • الا تعلوا على وأتونى مسلمين• قالت يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون • قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامـر اليك فانظرى ماذا تأمرين • قالت أن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهـدية فناظرة بم يرجع المرسـلون » •

سألنى سليمان ـ ما هى ملاحظاتك الخاصة على ماحدث •

قلت ـ أعتقد أن ديموقراطيتهم صورية ••فانها سألتهم رأيهم فحدثوها عن قوتهم ثم فوضوا اليها الامر فى النهاية • هم قوم بلا رأى • ثم انهم يتصورون انهم يحاولون شراء سكوتك بهدية • ضحك سليمان طويلا فاستراحت أعصابى •

وصل رسل بلقيس يحملون هديتهم • كنت أول من عرف الخبر ، انبأتنى هداهد الاستطلاع بكل شىء ، هناك هداهد طائرة فى الجـو طوال الليل والنهار • هؤلاء هداهد مخابرات يتبعوننى ويعملون تحت امرتى •• قسمت العمل فيما بينهم ليحملوا الى أى خبر عن أى قـدم غريبة تدب فى المملكة • عرفت أوصاف الهدية منهم وحدثت الملك سليمان عنها وأنا أقاوم الضحك • كانوا فرحين بهديتهم يتصورون انها شىء عظيم • كانت الهدية بالنسبة الينا •• أقصد بالنسبة لسليمان •• شيئا عاديا ، أخلط كثيرا بين سليمان وبينى هذه الايام ، وذلك شىء خطير•• اعترف بذلك • قابل الملك سليمان رسل بلقيس وهو جالس على عرشـه وحوله اسود من الذهب واسود حقيقية • تثاءب أحد الاسود الحقيقية فحدثه سليمان بلغته أن يكف عن التثاؤب ، وسـأله أين كان سهران ليلة الامس • كان هذا هو الأسد السمج الذى لا يكف عن ازعاجى • قلت لسليمان : ان الأسد كان يغازل انثى جديدة ألحقت بسلاح الاسود •• اعتدل الأسد فى وقفته وشد صدره لأعلى ثم زأر معتذرا • أغمى على رئيس وفد بلقيس من المفاجأة وكان عجوزا شيخا لم ير فى حياته أسدا حقيقيا • رفض سليمان هديتهم وأفهمهم انهم يخطئون لو حاولوا شراءه بالذهب• أشار الى ذهب الحيطان والارض والتماثيل وأفهمهم انه لا يطلب سوى اسلامهم • هددهم سليمان بالغزو •• يعجبنى سليمان فى ايجاز عبارته الدال على قوته • انه لايهوش ولا يعمد الى التضخيم

شأن الضعفاء .. تغنيه قوته عن ذلك . دعونى أذكر نص عبارته لرئيس الوفد بعد أن أفاق : « **فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** » انصرف الوفد وقد لمعت وجوه أعضائه بعرق الخوف البارد . وجلس سليمان مطمئنا واثقا .

مرت الأيام . عاودت حياتى الطبيعية ونجا عنقى من الذبح وظهر صدقى . مشكلة المشاكل بالنسبة للمهمين من أمثالى الهداهد ، انهم مهددون بالذبح فى أى وقت .. اما قمة المجد أو سيف سليمان على الرقبة .. ليس هناك حل وسط فى الموضوع . هذه هى السمة البارزة فى حياة العظماء . يعيشون دائما وسط الخطر . أعرف هدهدا متوسطا فى كل شىء . يعيش فى أمان مطلق .. لكن أحدا لم يسمع باسمه ،بينما أنا .. لاأريد أن أتباهى .. يعلمنا سليمان التواضع الشديد ويقول لنا دائما : ان العظمة الحقيقية تكمن فى التواضع ، لأن الله سبحانه هو الذى يملك وحده حق الكبرياء ، ان قوته تستند الى قوته،أماالبشر الفانون والهداهد الفانية وكل ملوك الأرض وحكامها الفانون ، فهؤلاء يعطيهم الله ، ولو شاء لامسك عطاءه عنهم فضاعوا .. كيف يفخر الانسان أو الهدهد بذكائه أو منصبه أو ثرائه أو قوته ، اذا كانت القوة والذكاء والمنصب والثراء كلها ليست ملكا لنا ، وانما هى عارية مسترجعة وقرض مسترد . يجب ألا أفخر أو أتيه أو أتكبر .. ها انذا أخفض رأسى وأفرد أجنحتى وأصلى .. الحمد لك يارب .. خلقتنى هدهدا ذكيا وكان يمكن أن تخلقنى هدهدا غبيا . وخلقتنى فى مركز عظيم وكان يمكن أن تخلقنى فى مركز بسيط . وخلقتنى أصلا وكان فى قدرتك ألا تخلقنى أساسا .. لك الحمد . لك المجد . لك الكبرياء . لك الملك . لك الحكم .

اللهم أن القضية توشك على الانتهاء فانصرنى فيها . أريد أن أكون سببا فى اسلام الناس يارب .

. . . . . .

كان الملك سليمان يجلس على عرشه وحوله وزراؤه وقادته من الجن والانس ، والطيور والوحوش ، حين التفت الى يسألنى فجأة : ماأهم شىء لفت انتباهك فى مملكة سبأ ؟

قلت : عرش الملكة ، واحساس الناس بأنهم متقدمون فى فنون البناء والتشييد والصناعة والنحت .. تركنى سليمان وأدار بصره فى وزرائه وقادته ورجاله ، أحيانا لاأفهم سليمان ، أحيانا تبدو أسئلته غريبة ،غير أن تقدم الوقت بى يجعل أشد أسئلته غرابة يتكشف فيما بعد عن حكمة عظيمة.. تكلم سليمان فجأة .. « **قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم** » .

شاهدت بنفسى ما حدث .. وأعترف اننى ذهلت . ان عرش بلقيس كان قاعدة من الفضة المطعمة بالذهب . وكان كرسيا من الذهب المطعم بالفضة ، وكان حائطا عليه رسم الشمس ، صنع كله من الذهب والفضة، كان الغطاء النقدى من الذهب والفضة لملكة سبأ موضوعا كله فى العرش . وكان العرش ثقيلا ، يزن ما يقرب من عشرة أشجار ثقيلة، وكان بعيدا مسافة طيران يوم كامل من هدهد سريع مثلى .. ورغم ذلك جاء العرش . امتحن سليمان رجاله فقال العفريت انه يستطيع احضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، وكان سليمان يقوم من مكانه بعد ساعتين .. وقال الذى عنده علم من الكتاب انه يستطيع احضاره فى لمح البصر .. فى اللحظة التى بربش فيها سليمان بعينه كان العرش أمامنا ..

أعرف أن الناس ستسأل : من هو الذى عنده علم من الكتاب ؟ .. ما اسمه ؟ .. وكيف أحضره ؟ .. وأى كتاب هذا الذى يمنح هذه القوى الهائلة ؟ .. وأعتقد بينى وبين نفسى أن هذه أشياء تخص سليمان وحده .. المهم فى القصة وجود مخلوق بهذه القدرة فى مجلس سليمان .. مخلوق ليس نبيا ولا ملكا .. مخلوق عنده علم من الكتاب.. شىء آخر غير كتاب الجن .. فان عفريت الجن كان سيحضر العرش فى ساعتين .. لن أقول اسم من أحضر العرش،ولن أتحدث عن كتابه .. من لا يرى قدرة الله فيما حدث ويكتفى ، ويسأل أسئلة فضولية لايستحق عناء المناقشة . .ثم انكم تنسون اننى رئيس المخابرات فى جيش سليمان .. تنسون أن مهمتى الأولى هى كتمان السر بعد معرفته .

وأنا أعرف من أحضر العرش •• أعرف كيف أحضره •• لكن عبثا تنتظرون أن أحكى •• لن أقول أبدا •• من يدرى ربما وقعت هــذه المذكرات فى أيد غريبة •• ليقل سليمان اذا كان يريد أن يقول •• أمــا أنا فانى أغلق منقارى على السر واصمت ••

أمر سليمان بتنكير عرشها •• أمر بتغييره •• أمر بوضع الاحجار الكريمة والماسات واللآلىء فى أماكن غير مكانها الأصلى حول قرص الشــمس •

لم أفهم لماذا يفعل سليمان ذلك •• أحيانا لا أفهم سليمان •• أمر أيضا ببناء قصر على البحر •• كان الأمر يقضى بأن يكون القصر ممتدا بنصفه فى البحر •• أمر سليمان بأن تصنع أرض القصر من الكريستال الشفاف ، بحيث يرى السائر فى حجرة الطعام مثلا قاع البحر بأسماكه الملونة وأحيائه المائية •• أمر ان تصنع الجدران من خشب الصندل المعطر ، وان تصنع الأسقف من الزجــاج الملون الذى يمســكه الذهب بحيث تسقط أشعة الشمس على السقف فتنهار الى ألوانها السبعة الأصلية وتلون الحجرة ، وبذلك تستخدم الشمس خادما للانسان كما خلقها الله •• أمر سليمــان أن يتم بناء القصر فى أقــل من الفترة التى يستغرقها وصول بلقيس من سبأ الى مكاننا •• انتهى بناء القصر • فأمر سليمان أن يوضع عرش بلقيس بعد تغييره وتنكيره واخفاء معالمه فى قاعة الاستقبال فى القصر • •أمر أن تفتح الجدران أمام العرش ، بدأت أفهم تصرفات الملك سليمان •• انه لا يريد أن يناقش بلقيس كثيرا •• يريد منها أن تفهم حين ترى ملكه ومجــده ، وتقارن ملكها الصغير المتواضع به ، يريدها أن تفهم أن عبادة الشمس أو عبادة أى مخلوق آخر ، لا يمكن أن تؤدى للنجاح أو التقدم ، وان أدت لمــا يشبه النجاح والتقدم • لا يتقدم الا من يسلم وجهه لله أولا •• ثم يأخذ بأسباب العلم ثانيا •

أدركت ذلك وصدقت الأيام ظنى ، وأسلمت بلقيس مع سليمان لله رب العالمين ••

« قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون • فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو • وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم

كافرين • قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها • قال انه صرح ممرد من قوارير • قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » •

لم تكد تقولها حتى وقفت أمام الملك سليمان •• صفقت بأجنحتى وقلـــت :

ـــ سيدى سليمان الحكيم •• ربحت لك القضية • وأنقذت نفسا انسانية من دمار الهلاك • وأنقذت معها شعبها من غباء عبادة غير الله•

قال سليمان : ماذا تريد يا مارهالا ؟ •• أنا راض عن عملك •

قلت : أين مكافأتى ؟

قال : اختر ما شئت من آمرين ، أن نزيد مرتبك ، أو نعطيك وســـام الهداهد من الدرجة الاولى •

قلت : لا يكفينى الامران معا •• اريد أن ادخل التاريخ •

قال : سأعطيك اسمى •• سنسميك هدهد سليمان •

تساءلت : ألست هدهد سليمان •

قال سليمان : أنت هدهد سليمان •• لكننى سأعلن فى أرجاء الأرض جميعا نسبتك الى •

قلت لسليمان : لا تسعنى الدنيا كلها يا سيدى •• لكننى اطمع فيمـــا هو أكثر ••

قال سليمان دهشا : ماذا تريد يا مارهالا •

قلت : اريد أن يمتد ذكرى فى التاريخ •• اريد أن يسمع الملايين عن هذه القضية •• أريد أن يعرفنى الناس بعد موتى ابتداء من اليوم الى يوم القيامة •

قال سليمان بوداعة : ليس هذا بيدى يا مارهالا •• هذا أمر يملكـــه الله وحده ••

قلت : أعرف ذلك ايها النبى العظيم •• اعرف •• لكنك تملك أن تدعو الله ان يخلد اسمى على الزمن •• رفع سليمان رأسه وسألنى فجأة :

ـــ مارهالا ••أيكون الغرور قد أصابك • أتكون قد ظننت نفسكشيئا••

قلت بجرأة : ليس الغرور ايها النبى هو مشكلتى •• اريد أن يعلم الناس ان هدهدا متواضعا بسيطا كان سببا سخره الله تعالى لاسلام أمة كاملة •• هذا حقى أيها النبى •• هو حقى ومجدى فى نفس الوقت

تبسم سليمان ومد يده وربت على رأسى ودعا الله أن يعطـــر ذكرى على امتداد الزمن الى يوم القيامة ••

انتهى سليمان من دعائه لى ••

انحنيت على يده التى تربت على رأسى وقبلتها ••

صرفنى باشارة من يده •• قلت وانا اتهيأ للانصراف •

ـ اعرف ان الله يستجيب دعاءك ايها النبى العظيم •• لكننى افــكر دهشا كيف يمتد ذكرى على التاريخ حتى يوم القيامة •• أى كتــاب هذا الذى يعيش الى يوم القيامة ••

قال سليمان : مثلك أنا ياماره‍ــالا لا أعرف الغيب •• ســألتنى ان ادعو الله لك فدعوت ••

صدقنى •• لست اعرف كيف يحقق الله دعوتى ••

مثلك تماما تنتابنى الدهشة من هذا الكتاب الذى يعيش الى يوم القيامة ••

أى نبى يكون صاحبه ••

لست اعرف يامارهالا •• هذا كله غيب لا تدريه ولا ادربه مثلك ••



دابة الأرض

آحكى لكم ما حدث .

كنا نسمع ونحن مجرد نمل نعيش فى منازلنا ، أنباء متفرقة عن علاقات الجن بالناس ، وكنا ندرك ، رغم عقول النمل الصغيرة ، ان هذه العلاقات كانت سلاحا للجن ، لقد سخر الله الجن لسليمان ، سخرهم له كجند من جنوده، وخدم فى مملكته ، انهم يغوصون فى أعماق البحار ، ويعملون له ما شاء من القدور والقصور والبيوت فى أيام ، ويعبدون الطرق فى ساعات ، وتم هذا التسخير فى عصر سليمان وحده ضد قانون قديم يقضى بانفصال طائفة الجن عن طائفة الناس .

وكان هذا التسخير معجزة لسليمان .... وآية من آيات ملكه . وشاهد الناس ما يفعله الجن من أمور خارقه يعجز عنها الآدميون . وكان المفروض أن يزداد الناس ايمانا بالله ، وان يزدادوا ادراكا لقدرته سبحانه، ولكن الذى حدث هو انتشار الخرافة واستعلاء الوهم ؛ ازداد الناس اعتقادا فى قدرة الجن .. حتى لقد قال الجهلاء ان الجن يعلمون الغيب ..

لست أعرف ـ كنملة فى حالها ـ من الذى أطلق هذه الشائعة المضحكة ؟. ان أحدا لا يعلم الغيب سوى الله .. لا الجن ولا الانس ولا الأنبياء ولا الأولياء ولا الملائكة..

ان الله هو الخالق ، وما عداه ابتداء من الملائكة وانتهاء بالنمل .. مخلوقات .. فيها الجليل كالملائكة ، وفيها العظيم كالانسان ، وفيها البسيط كالنمل ..

والغيب هو ارادة الله تعالى كما تنفذ فى الأشياء • ولا يعلم هـذه الارادة غيره • وأى انسان أو نملة •• سواء كان ملـكا على النـاس أو ملـكة على النمل •• لا يعلم الغيب •• قولوا لى : من الذى يستطيع أن يقول لنـا •• ماذا سيحدث غدا ؟

اعتذر عن هذه المقدمـة البديهية ، أعتذر لبداهتها ، ولكنى مضطـرة اضطرارا لبدء حديثى بها •• قلت ان اشاعة مؤداها أن الجن يعرفون الغيب قد انتشرت •• لست أعرف هل نشرها عفريت من الجن أو انسان من الناس •• المهم انها انتشرت الى الحد الذى صارت فيه قضـية شبه مسلمة • وكنت أعرف ــ كنملة ــ أن الجن لا يعرف الغيب • غير انه قدر لى يوما ان أكون •• أنا النملة البسيطة الضعيفة المتواضعة التى تطيرنى أقل نفخة من فم الانسان •• قدر لى يوما أن أكون دليل الاثبات الوحيد فى قضية عدم معرفة الجن للغيب •

استطعت أن أثبت هذه الحقيقة •

المدهش •• اننى فعلت ذلك دون أن أدرى •• ودون أن أقصد •• كنت جائعة فلم أدر ماذا أفعل • وأكلت العصا •

عصـا سليمان ••

أريد أن أعود الى الوراء قليلا ليمكن أن نفهم •• بدأت معرفتى بسليمان من الاخبار التى كنا نسمعها عنه ••

كان سليمان أشهر واحد على الأرض فى عصره •

كان غنيا الى الحد الذى كان يصنع فيه جدران معبده وسقفه من الأخشاب الثمينة المغطاة بصفائح الذهب •• وكنا نحلم •• كنمل يأكل الخشب •• بأن ندعى يوما لهذه الوليمة • غير أن وقوف الذهب فى طريقنا الى الخشب كان أمرا منغصا للغاية •• لا أمل فى هذه الوجبة اذن •• هى وجبة مستحيلة •

كانت هذه المعلومة هى أكثر المعلومات التى نعرفها عن سليمان ، كانت تتصل بحياتنا اتصالا وثيقا • كان سليمان حلما بالنسبة الينا • حلما مسـتحيلا •

قلت اننى نملة من هـواة الخشب ، يسـمى الناس جنسـنا بالنمل الأبيض ، تمييزا له عن النمل العادى الذى لا يأكل الخشب •• والحقيقة أننا لسنا نملا أبيض •• هذه تسمية شائعة وخاطئة •• نحن من رتبة أرقى من النمل قليلا •• اسمى دابة الأرض •• لوننا باهت ، وطريقتنا فى الحيـاة عجيبة •• أحيانا نحفر الأرض ونبنى داخلها مساكن تتسع لستمائة ألف نملة ، ورغم اننا نعيش تحت الأرض ، الا اننـا نقـوم بعمل نظام رائع للتهوية •• وأحيانا نبنى عشرين نفقا متوازيا تحت الأرض • كل نفق منها يقع تحت الآخر مباشرة ، ونقوم بتثبيت ذرات التراب والرمل بلعابنا فتصبح لهذه الحواجز صلابة الاسمنت الآدمى •• وملك النمل الأبيض يعيش طويلا •• والملكة هي المسئولة عن وضع البيض •• وتضع الملكة فى حياتها الطويلة نحو عشرة ملايين بيضة ، ثم يفقس هـذا البيض الى عساكر وشغالات ، ذكورا واناثا • وعساكر النمل الأبيض أكبر حجما من الشغالة، ورؤوسها كبيرة صلبة •• وعندما نهاجم — نحن النمل الأبيض — مدينة من مدن النمل الأخرى ، تتصدر العساكر مقدمة الجيش •• وتقف الصـاعقة قبل مقدمة الجيش ، وعساكر الصاعقة من النمل لها أنف طويل يشبه المنقار ، وحين يهاجمها النمل العـادى تفرز العسـاكر ذات المنقار سائلا لزجـا يلتصق بعنق عسكرى النمل العدو كالصمغ •• وبهذه الطريقة نشل أعداءنا ونكسب •• ونحن نتغذى أساسا على الخشب •• فى معدتنا أنواع من البكتريا التى تمكننا من هضم الخشب ، وتجعله بالنسبة الينا مثل أشهى الأطعمة بالنسبة للآدميين ، وللنمل الأبيض هجرات خاصة •• تخرج تجمعاتنا مرة واحدة فى العمر ، عندما تطير سحب كبيرة منها فيها ذكور واناث بحثا عن بيوت جديدة ، وتفترس الطيور والحيوانات معظمنا ، أو نموت لأسباب أخرى •• ثم ينجو من هذه المجمـوعة الطائرة ذكر وانثى يبدآن على الفور فى حفر بيت جديد ، بعد أن يتخلصا من أجنحتهما التى لا فائدة منها الآن ، ثم يتزوجان فى مسكنهما تحت التربة،ويسرعان فى انشاء مستعمرة أخرى جديدة •• وهكذا يكفى اثنان منـا لصنع جيـل جديد •

كنت أطير •• مع الآلاف من جنسى ، حين وقعت فجأة •• انخلع أحد أجنحتى أثناء الطيران فهويت •• أين تظنوننى هويت ؟ •• فى محراب سليمان الذى يتعبد فيه •• لم أكد أسقط حتى تخلصـت من جناحى

الثانى ، وبدأت استكشف المكان •• كنت أحس ببعض الدوار من أثر السقوط •• غير أننى •• اعترافا بالحق •• أصبت بدوار أعظم وأنا أجوس خلال المحراب •• ان عظمة المحراب كانت فوق قدرة العقل النملى على التخيل •• الأرض من الرخام المغطى بالسجاجيد •• الجدران من الكريستال الشفاف •• ليس هناك سقف •• كرسى سليمان من الذهب •• سليمان يجلس على كرسيه وقد أسند ذقنه الى عصا يمسكها فى يده •• لا أحد يجرؤ على اقتحام المحراب وسليمان يتعبد •• أى شىء فى الدنيا يستطيع أن ينتظر سليمان حتى ينتهى من صلاته •• وحول المحراب يسرع الجن وهم يتأملون سليمان جالسا ، ليؤدوا سخرتهم وأعمالهم ، أدركت أننى وقعت فى شر أعمالى •• كنت المخلوق الوحيد الذى جرؤ على اقتحام محراب سليمان •• ماذا لو رفع وجهه فرآنى ؟ •• قلت لنفسى ألقى عليه السلام حتى لا يفاجأ بوجودى •• همست :

— السلام على النبى الملك سليمان الحكيم •• أنا يا سيدى نملة وقعت هنا خطأ •• أرجو معذرتك •• لو قلت لى أين الباب فسوف أخرج •

لم يرد الملك سليمان •

رفعت صوتى أكثر •• وظل سليمان صامتا •

اقتربت منه أكثر •• رفعت رأسى وتأملت وجهه المهيب الجميل العظيم ••

كانت عيناه مفتوحتين تحدقان فى جزء من الأرض أمامه •• لم يكن يطرف •

قلت لنفسى لعله مستغرق فى صلاته ، وقفت ساكنة ، ومر الوقت وهو لا يتحرك •• تقدمت منه أكثر •• قلت بصوت ضعيف :

— سيدى سليمان الملك •• أنا جائعة وقد جاء ميعاد غذائى وليس فى الحجرة كلها أى قطعة من الخشب غير العصا التى تستند اليها •• ماذا أفعل ؟

لم يرد سليمان •• تقدمت منه أكثر •• أعدت على سمعه التماسا جديدا ، أفهمته فيه اننى جائعة ، وان العصـــا التى يســـتند اليها هى طعامى الوحيد •

ظل سليمان صامتا •• وانقضى الليل •• وجاء الصباح •• وسليمان لا يتحرك •• أدركت بالهام مفاجىء انه ميت •• ان بياض شـــفتيه النبيلتين ، وشحوب وجهه الكريم ، وصمته الساكن المروع •• تعنى انه ميت •• صليت صلاة طويلة على روحه الطاهرة ، وتقدمت من العصا •• هى رزق ساقه الى من يرزق الدود فى الحجارة ••

بدأت ألتهم العصا •• آه •• هى من شجر الخروب •• يذكرنى الخروب بالخراب •• مات صاحب العصا وسيدرك بيته الخراب ••

— عليك الصلاة والسلام أيها النبى الكريم •• طبت حيا وميتا •• ميت أنت ولكنك تطعمنى عصاك فما أنبلك •

عاودت الأكل •• أكلت جزءا منها فى أيام •• اختل توازن الجســـد العظيم فجأة وخر سليمان الى الأرض •• لم أكن أقصد ذلك •

لم يكد سليمان يقع على الأرض حتى أحسست أن جسدى كـــله يتزلـــزل ••

كان الجن يمر على المحراب فشاهد سليمان راقدا على الأرض •• نشر الجن النبأ ••

دخل المحراب رجال سليمان فألفوه ميتا ••

توقف الجن حين علم نبأ موت سليمان ، أدرك الجن أنه تحرر من تسخير سليمان له •• اكتشف الناس ان ســـليمان ميت منذ زمن ••

طوال هذا الزمن كان الجن يعمل دون أن يعرف بموت سليمان •• كان موته غيبا فلم يعرف به الجن ••

« فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » •

كشفت أنا النملة الصغيرة ما كشفت ، واسقطت دعوى معرفة الجن للغيب •• أسقطتها حين أسقطت العصا •• ورغم أن فمى لايكاد يرى •• فقد أسدلت به الستار على ملك سليمان العريض ••

وهو ملك شاركت فيه أعظم المخلوقات وأكبرها واعتاها ، وأسدلت عليه الستار أصغر المخلوقات وأبسطها وأدناها •• فسبحان من يمنح ويمنع ، ويؤتى الملك وينزع الملك ، وسبحان من جعل لكل شىء بداية ، وجعل لكل شىء نهاية •• سبحانه وتعالى على البداية والنهاية •



حمار العزير

يشيع فى حياة النوع المسمى بالانسان تصـور شائع مؤداه أن الحمير لا تقرأ ولا تكتب ، وليس هذا صحيحا على اطلاقه .. هناك حمير تقرأ وتكتب .

نحى نقرأ آثار الرائحة فى الأرض ، ونقرأ من هبات الهواء احتمالات التغيير المنتظر فى الطقس ، صحيح اننا لا نكتب الا فى أحوال نادرة . عندما يكون هناك اعتراف أو شكوى أو شىء خطير نريد قوله .

اعرف ان الناس قد كونوا رأيا سيئا فى الحمير . وأحب أن أقول أن للحمير رأيها المماثل فى الناس . لا أريد أن أشرد .. يحدث لنا معشر الحمير ان نشرد أثناء السير ..

يتشتت النظر فى الجانبين بدلا من اتجاهه الى الأمام ، ولهذا يضع النـاس لنا حواجز معتمة على جانبى عيوننا لوضوح الرؤية وتحديدها .. لو كان هذا ممكنا فى الكتابة لصار للحمير فى دنيا التأليف شأن .

نسيت أى منعطف كنت أقف عنده فى الكلام ..

تذكرت الآن .. كنت أتحدث عن جنس الحمير ..

ينحدر جنس الحمير الصابر الذى انتمى اليه من حمار وحشى عظيم عاش فى الايام القـديمة الطيبة فى غابات الصومال، ثم أنشب الصراع أظافره بين هذا الجد الوحشى والاسد . كان الاسد اللعين لا يستطعم غير لحم جدنا الراحل .. وكان كل هم هذا الجد ان يتناسل .. ولم ينفعه ذلك واستمر عدده يتناقص .. أخيرا اهتدى جدنا

الأكبر الى طريقة ينجو بها من الاسد • ترك الانسان يستأنس أخيب من فى ذريته ، على أن يحمل الانسان هم حماية هذه الذرية من الأسد ، وفى مقابل ذلك ، يقوم الحمار بخدمة الانسان وحمله وحمل أثقاله وجر متاعه • كان يوما أسود • انقسمت فيه سلالة الحمير الى قسمين : سلالة وحشية بقيت كما هى ، وسلالة مستأنسة جديدة هى نحن ، وقد اختلفت سلالتنا عن الحمير الوحشية القديمة اختلافا واضحا • ان الذل يغير من شكل المخلوق الخارجى ويغير تشريحه الداخلى ، طـالت آذاننا وكبر رأسنا وفقدت أسناننا حدتها وقوى ظهرنا واتسع بطننا ، وصارت لنـا معدة جبارة يحتاج ملؤها لاحتمال ذل كثير يقع على الرأس •

تم هـذا التحول الخطير فى حياة الحمير منـذ ١٢ ألف سنة ، أى فى العصر الحجرى الجديد كما يقول علماء الانسان ، ويبدو لى ان الله أراد تكريم الانسان وخدمته فعهد لجنسنا الصابر بهذه المهمة ••

ان أحدا فى الكون كله لم يستفد من الحمار كما استفاد الانسـان ، ورغم ذلك فلا حمد ولا شـكر ولا اعتراف •

مشكلة الانسان الأساسية ــ من وجهة نظرنا المحايدة ــ انه يقيس كل شىء فى الدنيا الى نفسه ومصالحه ، يعتبر الانسان نفسه مركز الكون وأهم واحد فيه ،وهو يثبت لنفسه هذه السيادة بشكل تلقائى بمجرد الميلاد •• وليس هذا ما اتفقنا عليـه •

ان الميثاق الذى تم بموجبه تسخيرنا لخدمة ابن آدم كان ينطوى على شرط يحدد الانسان الذى هو سيد الكون وخليفة الله فى أرضه •• وكان الشرط واضحا وصريحا فى تأكيده ان الانسان مخلوق راق يعرف الله ويعبده ، ويقوم بتعمير الأرض وتغييرها ، ويحسن الى المخلوقات التى سخرها الله له كى تخدمه وتشقى من أجله •

وقد سقط هذا الشرط القديم واكتشـف جنس الحمـير ان للانسان تصرفات أسوأ من تصرفات الأسد • كان الأسد يأكلنا بغير التواء ، أما الانسان فيأكل حقنا وعملنا بطريقة ملتوية أشد الالتواء ، وهـو يرى نفسه متفضلا علينا رغم أنه مدين لنا ، وهو يتصور نفسه أرقى منـا بانسانية لا نراه يملك منها الا اسمها •

ورغم هذا كله فنحن نصبر •

لا أريد أن أدلف من أرض الرضا لأرض المرارة • حمار أنا بالرضا،ولو عرفت المرارة أو الغضب لصرت أسدا أو نسرا أو وحشا ، ونحن لا نحب التغيير • كل الحمير تنفر من التغيير • ذلك طبع فينا وفطرة وجبلة •

لم أقدم نفسى الى القارىء •• أنا حمار أبيض يميل جسده الى الحمرة أعيش فى مدينة ريفية فى فلسطين ، سيدى وصاحبى رجل أشيب طيب اسمه عزير ، يقرا معظم الناس اسمه على أنه عزيز ثم يقولون ان الحمير أغبياء وبلداء • لن أتوقف للمناقشة • ماض أنا فى طريقى وذيلى يهتز •

لماذا أريد أن أكتب مذكراتى ، رغم معرفتى أن الحمير جنس يتحلى بفضيلة التواضع وانكار الذات •

هاء •• هذا سؤال هام ••

اريد ان أؤكد للقارىء ــ سواء كان حمارا ام انسانا ــ اننى لا أكتب هذه الأوراق للمباهاة أو التعالم أو الفخر ، لا أريد أن أثبت لنفسى قيمة أكثر من بقية الحمير • كل ما فى الأمر ان تجربة غريبة وقعت لى • تجربة مثيرة ومذهلة •

وهى تجربة لو وقعت لغيرى وحكاها لى لما صدقتها • مشكلتى ان هذه التجربة وقعت لى شخصيا • عاينتها بنفسى • ولسوف أحكيها كما وقعت تماما •

تصوروا اننى توفيت ، وصمت تنهيقى وكف عن اللعلعة • وبليت عظامى واستحالت الى التراب ، ثم عدت مرة ثانية الى الحياة والتنهيق•

يدور رأسى وتتقلقل عظام الجمجمة حين أذكر ما حدث •

ماذا لو بدأنا القصة من بدايتها •

لا أحب الأسلوب الجديد فى رواية القصص من نهايتها واستخدام طريقة الفلاش باك •

ولدت ذات يوم •

وكل الحمير تولد ذات يوم • ليس هناك جديد فى الامر • الجديد اننى سألت عن أبى فنظرت امى نظرة حائرة الى عشرات الحمير الذين يقفون أمام مرابطهم وقالت باحتقار : كان أبوك القديم وحشا عظيما يصارع الأسد •

وانشأت أمى تحكى لى قصة طويلة عن أمجاد أبى القديم أيام كان يعيش فى غابات الخوف التى تثير فى المخلوق أنفس ما فى طبيعتــه من خصائص • بعد نهاية القصة •• وجدت أمى لم تجبعلى ســؤالى •• وعرفت حين كبرت أول حقيقة فى دنيا الحمير •

هناك أم وليس هناك أب •

لا تعرف الام من هو الاب من فرط الانشغال والتعدد • ولا يعــرف الطفل من هو الاب ، لان الحمار الذكر لا يربى أبناءه ولا يعنى بهم ولا يلتفت اليهم • آلمتنى هذه الحقيقة فى طفولتى • غير أن ما تصورته فوضى قاسية يومئذ قد انكشف لى فيما بعد عن حكمة عظيمة •

ان الحمار يتعرض كنوع صابر صامت لعذاب يؤدى لتقصير عمره على الأرض ، ومن المهم فى دنيانا ان يزيد النوع ويكثر النسل ، ولهذا السبب يشتعل الحمار دائما بالرغبة نحو الجنس الاخر ، وليس هناك حمار يعتقد ان هناك انثى تخلو من الجمال أو السحر •• ونحن لا نعــرف كجنس تحريم الأقارب المحرمة ، أيضا نجهل اقتصار الذكر على انثى واحدة ••

وغنى عن الذكر ان انطلاق الحواس بغير رادع هو خاصة مميزة من خصائص الحمير •• وأحيانا نجد هذه الصفة فى النـــاس •• وأقول فى نفسى عندما أرى أحدا من الناس مثلنا لا يعرف الحياء •

ــهاهو حمار أصيل يتخفى وراء قناع الجلد الآدمى •

وأحس نحو هذا الزميل بتعاطف وود • انه يستمتع بحريته فى ممارسة الحب مثلنا • وهو مثلنا لا يفكر الا فى شيئين : الطعام والاناث •

وأحيانا أقول لنفسى : ماذا تظن •• ربما كان هذا المخلوق حمـــارا ثم تطور • لعله الصورة المتطورة من الحمار • من يدرى ؟

كنت أحب أن اتحدث عن طفولتى مثل الكتاب الآدميين •

يؤسفنى اننى لا أذكر طفــولتى • كل ما أذكـــره منها هـــذه القصة الخيالية عن جدنا القديم الذى عاش فى الغابات • وفيما عدا ذلك ، أرى طفولتى غارقة تماما فى الظلام • بالنسبة الينا معشر الحمير لا نفكر فيما مضى • ولا نشغل البال بما لم يقع بعد • ذهننا مغموس تماما فى اللحظة الحاضرة • لانــرى ما قبلها ولا نعى مـــا بعدها • كل ما أعرفه عن طفولتنا أن تسميتنا فيها تختلف عن تسميتنا فى الكبر • يقال عن الحمار

الطفل انه جحش . والجحش حمار صغير . حمار سعيد . حمارلم يمزق بعد قناع الوهم عن الحقيقة . يعيش الجحش وسط وهم سابغ بان الدنيا هى أمه التى ترضعه ويسير وراء ذيلها سعيدا .

ثم يكبر الجحش ويكف عن الرضاعة ، ويخرج الى الحياة .

ان صدمة هائلةتنتظره عند منعطف الطريق القادم . تسقط أمه من ذاكرته . لم يعد يعرفها ان رآها . لن يعود الى التمسح فيها . صارت بالنسبة اليه مخلوقة غريبة لا يميزها شىء عن الأخريات . وكلما ازداد استواء الحمار اكتملت له مميزات شخصية ، وهى النظرة الى الحب على الشيوع . والنظرة الى الطعام على الشيوع . وهذه القدرة على أداء أشق الأعمال وأقساها .

وصل سيدى وصاحبى عزيز .. شممت رائحته حين دخل البيت .. رفعت رأسى ونهقت سرورا بوصوله .

أنا أحب هذا الرجل بصدق .. هو رجل طيب لم يضربنى يوما بالعصا ولا بيده .. يطعمنى أفضل الفول ويأكل هو أسوأه .. يرحمنى ويريحنى ويقسو على نفسه . أعيش معه منذ عامين .. بعد عام ونصف عام اكتشفت أن الرجل نبى من أنبياء الله،اعتذر لاكتشافى هذه الحقيقةمتأخرا ولكننى فى نهاية الأمر حمار ولا أريد أن أدعى ما ليس لى من الفضل .. وقبل أن التحق بخدمة هذا السيد الكريم والنبى الطيب .. كنت اشتغل عند تاجر غنى .. أو لص بخيل ان شئت الدقة .

أقسم بمخازن الفول الذى جففته الشمس ، كما أقسم بحقول البرسيم الشتائى الأخضر أن سيدى السابق كان لصا بخيلا .

حين اشترانى راح يربت على رأسى وظهرى فتصورت أنه طيب وأحببته ، ولم نكد نصل الى بيته حتى تشاءمت ..

كان الرجل يكسب فى اليوم الواحد ثروة تكفى لشراء حقل من الفول ، وكان يعيش على بيضةكل أسبوع . يأكل ١/٧ بيضةكل يوم . ومعهاكسرة من الخبز الجاف ثم ينهال على زوجته ضربا لأنها أكلت بيضة كاملة ، كان يعيش فى بيت بدائى صنعه من جذوع الأشجار ، وكانت حيطان البيت الهشة لا تقاوم برد الشتاء المروع . وحين وضع أمامى الطعام نهقت تنهيقة قلت فيها : بطنى كبير والعلف قليل وهذا للعلم .

نظر الى نظرة قاسية وانهال على ظهرى ضربا •• وفهمت أنه أدرك معنى التنهيقة • بعدها اعتدت التحفظ فى التنهيق أمامه •

وبدأت أيامى السوداء فى خدمته •

اكتشفت أنه اشترانى لبناء بيت حجرى • كان الرجال يكسرون له حجارة الجبل فأحملها على ظهرى حتى مكان البناء • ومرت الأيام وتسلخ ظهرى وانكسر وسطى من ثقل الحمل ،ولم يكن يقدم الى الا أردأ أنواع الطعام ، وكنت اذا لقيت حمارة بيضاء فى الطريق فشممت الارض ورفعت رأسى عاليا وثنيت شفتى العليا وألصقتها بأنفى وصفقت بأسنانى وزعقت عليها بنداء الحب •• كان يضربنى ولا يدعنى أمارس هوايتى المفضلة • ويقول تبريرا لذلك انه يريد أن يحتفظ بقوتى لانهاء أعماله •• اذا كنت أنا احتفظ بقوتى لمثل هذا الموقف • انظر الى الأنانية • كرهته يوما كراهيتى للذئب وأكثر •

صبرت على العمل ، وصبرت على الجوع ، واحتملت عذاب الضرب والتجويع ، وسجنت نفسى فى طبيعتى المسالمة التى لا تعرف غير الاحتمال ، فلما تعرضت حريتى فى ممارسة الجنس للتهديد ، رأيتنى أفكر بعمق •

هذه هى الحالة الوحيدة التى تفكر فيها الحمير بعمق •

نظرت حولى فى حياة الناس والحمير نظرة متأنية فاحصة فماذا رأيت• رأيت الجزاء لا يوزع على قدر الجهد المبذول،وانما يوزع على قدر قدرتك على النفاق • ورأيت أخس النفوس تجلس على عروش الكبرياء والثراء والاحترام ، ورأيت أن الخطيئة التى تستطيع دفع الثمن على الارض تواصل مسيرتها التاريخية آمنة مطمئنة ، ورأيت اللصوص تسرق طعام اليتامى فيقدم اليتامى والأبرياء الى السجن ، ورأيت الانسان تزيد قيمته فى الحياة كلما زاد مايأخذه منها،لا كلما زاد مايعطيه لها • ورأيت الانسان يظلم أخاه الانسان ويستحل لنفسه ما يحرمه على غيره ،ورأيت حمارة بيضاء فنهقت أناديها فسقطت الضربات على ظهرى ، وحيل بيتى وبينها •

وذلك فوق قدرة الطاقة • احتملت ما فيه الكفاية •

طفح الكيل وفاض وانسكب مثلما تنسكب المياه من جردل قديم

وحز هذا الموقف فى قلبى مثلما تحز الأنهار لنفسها مجاريها فى الأرض الصلبة • قلت فى تنهيقة أليمة : العلف قليل والبطن كبير والحر شديد وظهرى متسلخ وأنا وحيد وهذا للعلم •• تقول الحمير دائما فى نهاية تنهيقها : وهذا للعلم ، اتباعا لروتين قديم تمضى عليه الحمير جميعا •• وليس كالحمير جنس يحافظ على الروتين ويهواه • •

انتهت تنهيقتى فقررت أن أغير أسلوبى تماما فى الحياة •• هل أصير حصانا يختال ظهره تحت عجيزة سلطان جائر أو ملك ظالم ، هو انحدار يلبس ثوب الرقى ، وثمة استحالة أن أصير حصانا • ثم أن الحمير تنفر من التغيير ، لم يبق هناك مفر من العناد

قررت أن أحرن •

حاول سيدى الظالم أن يحملنى أثقاله فحملتها ، فلما دفعنى بعصاه لأمشى رفضت أن أسير ، انهال الضرب على ظهرى ووجهى فازددت صبرا وثباتا ورفضت الحركة •

وذهب بى الى شيخ يدعى معرفته بطب الحمير وسأله :
ـ هل الحمار مريض ؟

جس الرجل بطنى بعصاه ، وفتح فمى ونظر فى أسنانى وقال :
ـ الحمار كالجن ولكنه بليد •
رسمت على وجهى تعبيرا من البلادة •

واشتد الضرب وازداد عنفا ، فاشتد اصرارى على عدم الانتقال من مكانى خطوة • ثم نهقت قائلا : هى علقة تفوت ولا احد يموت وهذا للعلم •• ثم أوجعنى الضرب يوما وكان يصدر من ورائى فرفعت قدمى ومددتها فى اتجاه الضارب • هى رفسة واحدة تندرج تحت حالة الدفاع الشرعى عن النفس •

أصابت الرفسة يد الظالم فصرخ متألما وأرغى وأزبد وقال :
ـ يعاندنى الحمار ويضربنى فسوف أقتله • أحضروا الفأس والسكين•
لم تتحرك فى جسدى شعره •
أعرف أنه بخيل ولن ينفذ تهديده • ربما فكر فى بيعى •
أثمرت سياسة العناد وقرر الرجل بيعى فى أول سوق ينعقد للحمير •

سحبنى الى السوق وراح ينادى •
حمار نشيط وشقى وقدرته على العمل لا تكل •• انظروا اليه ••
سأل أحد التجار ــ بكم تبيعه •
قال ــ عشر قطع فضية •

تحرك التاجر بى قليلا فتماوت وتباطأت ، فتح التاجر فمى وقال : أسنانه سليمة وشابه •• فما سر بلادته •• قطعتان فضيتان •• صرخ صاحبى كمن طعنه أحد بسكين ، وانهال ضربا على وهو يؤكد اننى حمار يساوى ثقله ذهبا • عاد يحاول حثى على الجـرى فرفضـت • ادعيت الكسل وتباطأت • كنت أعرف اننى أغامر باحتمال ان أبقى مع صـاحبى ولا أباع ، ورغم ذلك قررت التمادى ، كنت أريد أن أباع بأبخس الأثمان نكاية فى صاحبى البخيل ، وقد حدث ما توقعته •• باعنى بعد أن يئس منى وقبض قطعتين ونصفا وانصرف يشيعنى بنظرات الحقد • لم يكد التاجر الجديد يعتلى ظهرى حتى طرت به فى الطريق • ووقف صاحبى القديم يرمقنى وقد اغرورقت عيناه بدموع الغيظ •

لم نكد نغيب عن ناظره حتى تباطأت ، ما الذى أخذنـاه من النشـاط والعمل والسرعة • لا شىء •• نكسل اذن •

وصلنا الى بيت التاجر فاكتشفت انه يقتنى عددا هائلا من الحمير •• ورأيت أكثر من حمارة بيضاء ••

رفعت رأسى ونهقت قـائلا : أنا مسرور •• أنا مسرور •• أليست هناك حمارة بيضاء فى هذه الناحية •• اننى أحس بالوحدة وهذا للعلم•• ومرت ليلة رائعة •

وجاء الصباح •• واكتشفت اكتشافا زاد رأيى سوءا فى الآدميين •

رأيت التاجر يقول لمساعده : افرز لى الحمير البليدة فى ناحيـة •••

وخرجت مع الحمير البليدة • احضر التاجر قطعة من الخشب واشعلها وراح يمر بها على سيقان الحمير الخلفية مرورا سريعا •• ربط الحمير فى مكانها وراح يعذبها بالحرق • •لم أفهم سر هذه الطقوس الغامضـة الا فى السوق •

حينما ذهبنا لعرضنا فى السوق •• كانت أقل عصـا تمس ظهرنا من

الخلف تلمس مكان الحرق . وهو مكان ملتهب .. تمسه العصا فيطير الواحد منا مثل أعظم حصان ، ويرتفع السعر غشا وتدليسا .. ثم لايكاد الجرح يبرأ حتى يعود الواحد منا الى بلادته ...

كان حظى أفضل الحظوظ ..

اشتراني عجوز أشيب هو عزير . قال للتاجر :

ـ أريد حمارا بطيئا وذكيا يحملني الى الناس ويعينني فى الأرض ورزقه ورزقى على الله .. اشار التاجر الى وهو قول :

ـ اشتريناه أمس بعشر قطع ذهبيـــة ، ونبيعه بسبع قطع اكراما لخـــاطرك . .

دفع عزير ما طلبه الرجل دون مساومة .

أدهشنى كـــرمه .

عدت معه الى بيته . اكتشفت حين اعتلى ظهرى انه رجل طيب . لم يكن يحمل معه عصا . ولم يكن ينخسنى فى بطنى . كان مثـــل نسيم عليل يمر فوق ظهرى.وأحببته.رأيته يعظ الناس وهو فى طريق عودته ويوصيهم باتباع الوصايا العشر .. كانت هذه المرة الأولى التى أسمع فيها عن الوصايا العشر ، لم أشغل نفسى بما سمعته .

عشت مع عزير . كان متزوجا عنده ثلاثة أولاد..وكانت لديه خادمة صغيرة تتفانى فى خدمته وخدمتى . كان اسم الخادمة « هانم » وكانت عادة تكرمنى بالعلف وتتوصى بى ، وكنت أعرفها من صوتها .

صارت لى فى بيت عزير حجرة خاصة فيها شـــباك بحرى نغلقـــه فى الشتاء بسبب السم الذى ينفذ منه كالسلهوب ، فاذا جاء الصيف فتحنا الشباك فجاءت منه طزاوة ترد الروح ..

أعترف أننى استمتعت تماما بحياتى مع عزير .

مضت حياتى هادئة رتيبة ، كنت آكل جيدا وأمارس حريتى فىالحب، وزاد وزنى وامتلأت ، وفصل لى عزير بـــردعتين جـــديدتين فنهقت حين رأيتهما قائلا : جاءتنى بردعتان جديدتان وأنا مسرور وهذا للعلم .

لم أكن أشقى كثيرا مع الرجل . ان مشاويره صغيرة ومحتمله ، يمر فى القرية ويحدث الناس عن الله ، ويدعوهم الى طاعته ، وينهاهم عن

عبادة الشيطان ويوصيهم باتباع الوصايا العشر • ورغم أننى سمعت اسم النبى الذى انزلت عليه الوصايا العشر الا اننى نسيته الآن • ذهنى أحيانــا يشرد بغير سبب مفهوم • وأعتــرف اننى واجهت أمــرين لم أفهمها أبدا فى سيدى عزير ، حديثه الدائم عن يوم القيامة • وقيامه بدعوته للناس بغير أجر • لاحظت أنه يتحدث كثيرا عن يوم يقــوم فيه الأموات من الموت ، ولم أفهم كيف يمكن لمثل هذا الأمر ان يحــدث •

لاحظت أيضا انه يعمل طوال نهاره وليله مجانا ، يدعو الناس بــلا أجر •• وتساءلت فى نفسى من أين يطعم أسرته ويطعمنى ، ثم اكتشفت أن له حديقة بعيدة يمر الطريق اليها بالمقابر •• من هذه الحديقة كان عزير يعيش • وكنت أعرف انه ينوى الذهاب الى حــديقته اذا صحب سلتين كبيرتين ووضعهما على ظهرى •

دخل سيدى عزير وهو يحمل السلتان •• وادركت اننا سنقوم برحلتنا الاســبوعية •

• • • • • • • • • • •

بدأت رحلتنا الى الحديقة ••

سرت نشيطا راضيا أستنشق الهواء النقى •• بعد طــريق متــرب دخلنا فى طريق أخضر تحفه الحقول من الجانبين •• ثم تغير لون الطريق الى اللون الاصفر الباهت •• هذا أسخف جزء فى الطريق •• نحن الآن فى منطقة جــرداء قاحلة • خرجنا من القرية تماما وهدأت الأصــوات وبدأت أسير على مهل •• شارفنا مدينة الموتى •• أحسست بتشــاؤم ونحن نمر على الخرائب القديمة ••

أسرعت فى السير حين مررنا على المقابر •• ضحك سيدى عزير حين رآنى أحاول اجتيازها بأقصى سرعة ممكنة ، يعرف أننى أخاف منها •• مد يده وراح يهدئنى حتى ابتعدنا عنها••لا يعرف سيدى عزير ما أراه أحيانا جوار المقابر •• الحجاب مكشوف عنا نحن البهائم ونحن عــادة نرى مالا يراه الناس •• وقد رأيت الى جوار المقابر أشياء لا أستطيع الحديث عنهــا •

بعد مسيرة طيبة وصلنا الى الحديقة ••

كان جسدى كله يتصبب من العــرق والارهاق ••• جريت الى الظل واخترت مكانا متربا وألقيت نفسى على الأرض ورحت أتمرغ ••

لم أكد انتهى من التمرغ حتى عاودتنى قوتى ونهضت نشطا كـأننى أنهض من نوم طويل •• رأيت سيدى يملأ احدى السلال بالعنب ويملأ الاخرى بالتين ••

عرفت ان موعد انصرافنا قد حان فملأت بطنى من العشب الطرى الظليل • دناوة سأدفع ثمنها فيما بعد ••

• • • • • • • • • • • •

وضع سيدى عزير على ظهرى سلة التين وسلة العنب وانصرفنا عائدين •

سرت نشيطا فى البداية ، ثم بدأت اتنفس بصعوبة •• كانت الشمس حامية كأنها نزلت من السماء وركبت فوق رأسى ، كان هنـاك اثنـان يركبان فوق ظهرى •• سيدى عزير والشمس •• وكان عزير محتملا أما الشمس فكانت مخيفـة •• لم أكد أسير خطوات حتى كان جسـدى كله يسبح فى العـرق ، وأنا أكره الأنهار والسباحة بوجه عام • وقفت ونهقت قائلا :

ـ التراب ساخن والحر شديد وبطنى ملآن وأنا طهقان وهذا للعلم •

ربت سيدى على رقبتى فعدت أسير • اقتربنا من المقابر فرأيت ظلالها الخربة المخيفة الغامضة تشبه حديقة لطيفة •• جريت نحو الظل ودخلت مدينة الموتى •• ابتسم سيدى وتركنى أذهب حيث أشاء • كنت أحس بحرارة مخيفة •• وهبط عزير ورفع عن كاهلى سلتى التين والعنب وجلس على الأرض •

كان كل شيء مرهدا من الحر •• أنا وسيدى وهوام الخرائب ونمل المنطقة •

جلس عزير وعصر بعضا من العنب فى صحن •• ثم أخرج رغيفا من الخبز الناشف وكسره ووضعه فى العنب كى يلين فتحتمله أسـنانه •• راقبته وهو يعد طعامه ودهشت •• ما أصغر كمية الطعام التى يأكلها الآدميون ، كان سيدى عـزير هو الآخر يبدو مستغرقـا فى تأملاته •• •• لاحظت أنه يجيل بصره فيما حوله من خرائب وعظام بالية وصمت ميت •• ثم سمعته يقول مندهشا كأنما يؤكد لنفسه قدرة الله •• سمعته يقول « **أنى يحيى هذه الله بعد موتها** » •

لم يكد عزير يقول كلمته حتى هاجمه مثلما هاجمنى نوم ثقيل مفاجىء

•• هذا النعاس الآمر الذي يصحب الحرارة ويبدو فيه أنك تستحيل من فرط التعب الى تراب ••

نمت نوما عميقا يختلف عن كل نوم نمته قبل ذلك •• وقد وقع هـذا قبل ان الاحظ اننى نمت •• حاولت ان انهق لأنبه سيدى أنه لو نام فسوف يفسد العنب المعصور من الحرارة ، ولن يجد طعاما يأكله عندما يستيقظ •• لم استطع •• رحت فى النوم •

نمت نوما عميقا غريبا • أشهد أن هذا النوم كان غريبا حقا • العادة اننى أحلم عندما أنام نوما عاديا •• أحلم اننى أسير فى حقول الفول مثلا •• أو أحلم اننى أقابل جدى الحمار الوحشى القديم •• أو أحلم أننى لم أزل جحشا ليست عليه مسئوليات وأثقال •• كان هذا النوم لدهشتى يختلف عن أى نوم •• كان نوما يخلو من الأحلام تماما ••

ثم أحسست فجأة بوجوده •• لا أتحدث عن سيدى •• لم أكن أرى سيدى عزير أو أحس بوجوده • انما كنت أحس بوجود كائن آخر •• كائن ليس من أهل هذه الأرض • كائن من نور جليل ••• سمعت هذا الكائن يسأل سيدى : كم لبثت نائما يا عـزير •• لم أسـمع جـواب سيدى •• ولم أره •• سمعت هذا الكائن الجليل يقول بعد لحظة صمت قصيرة : « **بل لبثت مائة عام** » أنظر الى حمارك الميت يا عزير • أنظر كيف استحال جسده الى تراب •• تأمل ما بقى من تراب عظامه •• ثم انظر كيف يأمر الله الموتى أن يعودوا الى الحياة •• هو مجرد الأمر وحده يا عزير • انظر كيف يبحث التراب عن التراب ويلتئم عظاما • أنظر كيف تغطيه الدماء والعروق ، ثم تأمل الجلد كيف ينبت فوقه •• انظر الى الشعر كيف يكسو الجلد •• لم يزل حمارك ميتا فانظر اليه كيف يصحو من الموت •• انهض أيها الحمار الميت •

كان الأمـر الاخير موجها الى •• وكنت أسمع كلمات هذا الـكائن الجليل ، دون أن أراه أو أرى عزير •• لم أكد أسمع الأمر الأخير حتى نهضت من نومى فجأة •• رفعت رأسى فوجدت الجو لطيفا وقد ذهبت الحرارة •• لم أر غير سـيدى عزير • كان يقف أمامى مندهشا كأننى أصحو من الموت • نهضت واقفا ارتعش وجربت أن أنهق فوجدتنى لم أنس النهيق •

قال عزير وهو يتأملنى ويرتعش ــ **« أعلم أن الله على كل شىء قدير »** •• طعام سيدى لم يزل على حاله سليما لم يفسد •• كيف متنا مائة عام تحول فيها جسدى الى التراب ورغمها بقى عصير العنب على حاله لم يفسد •• هذا العصير يفسد فى ساعات فى الحر •

رأيت عزيرا ينخرط فى صلاة عميقة ، مد يده الى طعامه فمنعه انفعاله أن يأكل أكثر من لقمة ، بعدها ركب ظهرى وساقنى عائدا الى القرية •

وتلقيت المفاجأة الاولى فى يومى الغريب •

لم تكن هناك قرية •

أقصد القرية التى تركناها قبل أن نذهب الى النوم فى المقابر • تغير شكل البيوت وتغيرت ملابس الناس وتغيرت برادع الحمير وتغير كل شىء • حاولت أن أتشمم الأرض بحثا عن رائحة بيت عزير فلم أجد رائحة •• وقفت فى مكانى خائفا •• بدأت أدرك ما حدث • أدركت بعد أن صرنا فى قلب القرية اننى قد توفيت وعدت الى الحياة •• وأخافنى هذا الموضوع خوفا شديدا •• ولولا عزير وطمأنته لى لجننت • لم يكن خوفى بغير مبرر •• لاحظت أن هذا النوم الذى نمناه قد فصل بينى وبين جنس الحمير فصلا نهائيا •• لم تكن الحمير ترانى فتقترب منى بود كما هى العادة • انما كانت تنهق خوفا وتبتعد •• أعلن عزير أنه قد عاد فسخر منه الناس • قالوا خرج عزير منذ مائة عام ولم يعد • مات عزير وشبع موتا • قال : أنا عزير وقد بعثنى الله من الموت بعد مائة عام •• أين أحفادى •• دلوه على أحفاده فوجد عزير أصغر أحفاده فى الستين من عمره •• كان عمر عزير خمسين سنة •• وجلس الجد وعمره خمسون سنة مع حفيده وهو فى الستين • ورفض الحفيد الشيخ أن يصدق أن هذا الشاب الصغير هو جده • لم يكن فى القرية كلها غير امرأة واحدة هى التى عاشت بعد خروج عزير من القرية •

« هانم » خادمتنا الصغيرة • تركناها فى العشرين من عمرها وها قد وصل عمرها الى المائة والعشرين • اقبلت الخادمة حين سمعت عن عزير وهى تجر جسدها المحطم وتتحسس بعصاها الطريق •• فقدت بصرها من الشيخوخة •• شممت رائحتها فأسرعت اليها ونهقت سرورا بها ورحت أهز ذيلى •

كانت هى الرائحة الوحيدة التى عرفتها فى القرية •

قالت المرأة لعزير : من الذى يتحدث عن عزير ويذكـره وقد نسـيه

الناس • ثم انخرطت فى البكاء •• قالت وسط بكائهـا : كان عـزير مستجاب الدعوة فادع اللـه لى أن أرى •• فدعا لهـا عزير أن ترى فذهب عنهـا العمى ورأته •• عرفته فصرخت ترحب به ثم ارتمت على قدميه تقبلهما وتبكى ••

وشاركتها البكاء • انعقدت عند عينى حبتان كبيرتان من الدموع •• قال أحفاد عزير : كان عزير يملك نسخة من التوراة فى بيته•وقد بحثنا

عنها بعد خروجه فلم نجدها • لو كنت عزير فأين هى التوراة •

لقد ضاعت أوراقها وتمزقت فى الحرب ونسيناها تماما •

قال عزير مشـيرا الى رأسه وقلبه : لم أزل أحفظ التوراة فى قلبى • وهناك نسخة أخفيتها فى جذع شجرة قديمة فتعالوا نبحث عنها • ذهبنا الى شجرة قديمة مهجورة تنمو حولها الاعشاب الطويلة •• وهناك مـد عزير يده وأخرج ما بقى من صفحات التوراة •• وتصاعدت صيحات الدهشة من الناس •

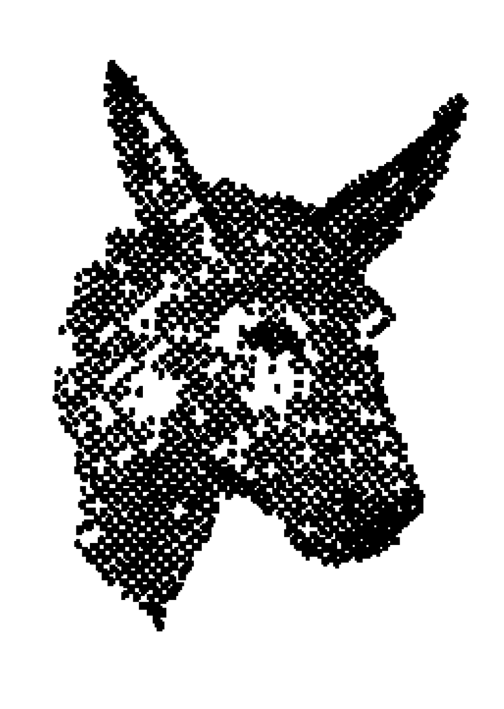
وسط لهفة الناس حول عزير نسينى الجميع تماما ••

انتهى الأمر وانسحبت من الصورة •• التف الجميع حول نبيهم الذى بعثه الله من الموت ونسونى أنا ••

انفردت بنفسى بعيدا عن الناس وطالت وقفتى •• سمعت واحدا من اليهود يقول لزميله همسا ــ عزير ابن الله ••

ارتعشت عظامى من الهول •

اضطرنى هذا لكتابة مذكراتى والادلاء بشهادتى أمام محكمة التاريخ•

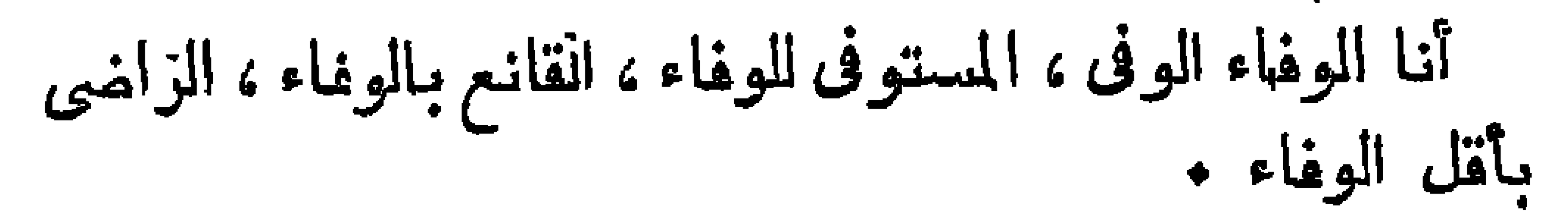


كلب أهل الكهف

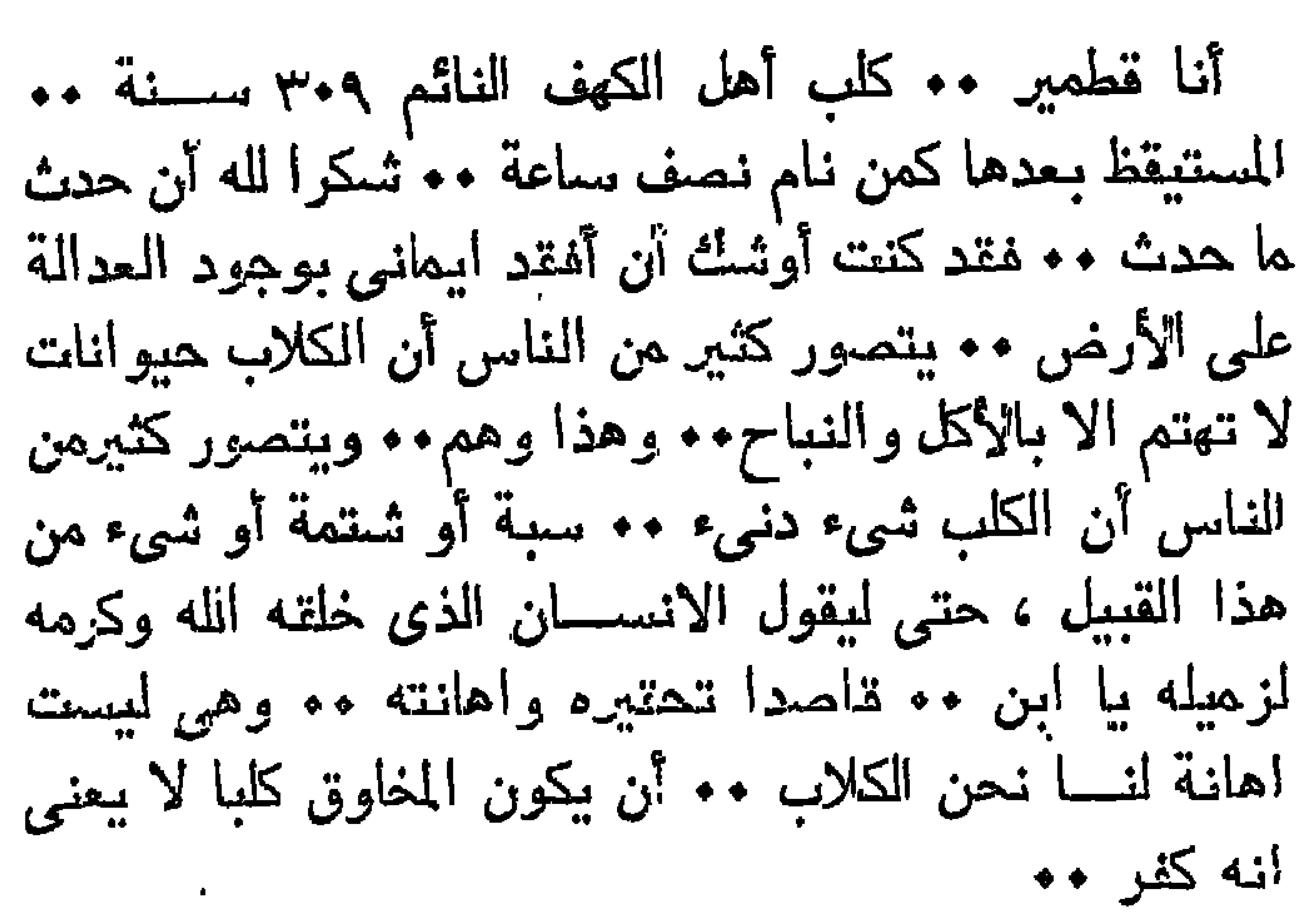


اعطى الوفاء كله وأرضى بأقل القليل •

نعـــم ••



أنا الوفاء الوفى ، المستوفى للوفاء ، القانع بالوفاء ، الراضى بأقل الوفاء •



أنا قطمير •• كلب أهل الكهف النائم ٣٠٩ ســـنة •• المستيقظ بعدها كمن نام نصف ساعة •• شكرا لله أن حدث ما حدث •• فقد كنت أوشك أن أفقد ايمانى بوجود العدالة على الأرض •• يتصور كثير من الناس أن الكلاب حيوانات لا تهتم الا بالأكل والنباح•• وهذا وهم•• ويتصور كثيرمن الناس أن الكلب شىء دنىء •• سبة أو شتمة أو شىء من هذا القبيل ، حتى ليقول الانســـان الذى خلقه الله وكرمه لزميله يا ابن •• قاصدا تحقيره واهانته •• وهى ليست اهانة لنـــا نحن الكلاب •• أن يكون المخاوق كلبا لا يعنى انه كفر ••

ان الله سبحانه وتعالى اختار أن يخلقنا كلابا •• واختار أن يخلق غيرنا ناسا •• ولو أراد سبحانه أن يخلق من الكلب انسانا ، ومن الانسان كلبا لفعل ، ولا معقب على حكمه واختياره •• لماذا يسىء الينا الناس اذن ، ويوردون أسماءنا فى شتائمهم •• لماذا ؟

سوف أنبح محتجا على ما يحدث ـــ أقول فى نباحى : هذا ظلم ••

على أى حال •• ليس هذا هو الظلم الوحيد الذى تخصص فيه الانسان •• لعل هذا أبسط أنواع الظلم التى يمارسها

•• ولقد رأيت ألوانا وأشكالا من الظلم ، بدأت بمولدى واستغرقت حياتى ، ولولا المعجزة التى وقعت لنا فى الكهف لقلت على العدل السلام •

ولدت ذات صباح مشمس فى خرابة نائية فى مدينة افسوس ••وحدد مولدى فى هذا المكان مستقبلى الى الابد •• هى مشيئة الاقدار أن اخرج الى الحياة كلبا ضالا ، وان اعيش فى مملكة ظالمة وأوقات سوداء •• ارضعتنى امى ثم ماتت قبل أن تتم رضاعتى •• وقد وقع موتها على رأسى وقوع الصاعقة ••

أحكى لكم كيف ماتت أمى لتعرفوا نوع الايام السوداء التى عشناها •• كانت أفسوس مدينة تعبد الاصنام ، وكان حاكمها كافرا بالله ، وكان اغلبية اهلها من الامعات وفاقدى الرأى •• هى مأساة أن تولد فى مدينة اهلها بلا رأى •• هذا يعنى أنك قد ولدت فى الجحيم •• انك لا تستبعد ساعتها ان يقع أى ظلم على رأسك ولو كنت بريئا •• مادام الناس يكفرون بالله ، فهذا يعنى أن كل شىء مباح •• ليس بعد الكفر ذنب ••

رأى أهل أفسوس فجأة أن عددنا قد زاد •• هكذا قالوا •• قالوا زاد عدد الكلاب •• وهم ينبحون طوال النهار وطوال الليل فلا ننام •• وهم يأكلون من طعامنا ويعضون أولادنا وينجسون معابدنا وينبغى اعدامهم جميعا •• هكذا قالوا ويعلم الله انهم كانوا يبالغون ، ولو أن كل واحد منهم بدلا من أن يدخر فى بيته الطعام ويكدسه حتى يتلف،القى الينا بكسرة من الخبز ، لوفرنا نباحنا وعشنا معهم فى سلام •• المهم انهم ادعوا انهم لا ينامون الليل بسبب نباحنا ، ونسوا أن نباح ضمائرهم هو السبب فى أرقهم •• بعدها قرروا اعدامنا ، وخرج الرجال المسلحون بالسيوف لاسكات النباح • انظر كيف يرتفع السيف ويهوى على الكلب منا فتذبح الصرخة قبل انطلاقها ، أو يعوى نصف كلب يرى نصفه يختلج على بعد خطوات منه ••

كنت رضيعا لم اكمل الرضاعة ، حين دخلوا الخرابة وهم يشرعون سيوفهم •

كنت ارقد بين حجرين فى الخرابة • نصف نائم ونصف مستيقظ •• اخفتنى أمى مع آخوين لى وذهبت الى السوق ، فلما عادت وجدتها تجرى وناسا يجرون وراءها وسيوفهم تقطر دما •• هوى السيف

فطار ذراع امى وانكفأت على الارض متخبطة فى دمها وهى تنبح نبـاحا ضعيفا قالت لنا فيه :

ــ اختبئوا جيدا ، فقد جن أهل المدينة وخرجوا يقتلون الكلاب •

شاهدت مصرع أمى أمامى •• وتمنيت ساعتها ، رغـم العـداء التقليدى بيننا وبين الذئاب •• تمنيت لو كنت ذئبا له ألف ناب وألف مخلب وألف روح •• ظللت أرتعش فى مكانى حتى سكنت حركة أمى وانصرف الرجال • بعدها خرجت من مكانى ونـاديت أمى فلم تستيقظ قلت لها : اننى جائع أريد أن أرضع فلم ترد •• كانت ترقد وسط بحيرة حمراء •• واحدى قدميها تهتز هزات مختلجة ، وبقية الجسد ساكن •

وهكذا صادفت اليتم قبل أن اتم الرضاعـة • وواجهت الحيـاة وحيدا منذ مولدى •• ولولا كلبة صديقة لأمى •• لولا صدرها الحـانى لما كنت أحدثكم الآن •• أرضعتنى صديقة أمى حتى كبرت •

وقد رعيتها فى شيخوختها ، وكنت أدفن لها العظام والخبز حتى اذا جاءت تزورنى اخرجت لها الطعام واعطيته لها وجلست أرقبها وأهز ذيلى وهى تـأكـل •

يعلم الله أننى كنت أطعمها وأنا جائع ••

لم أكن أطعمها لانها أرضعتنى أو أنقذت حياتى فى الصغر ••

أكون نذلا يفكر بعقلية المنفعة لو فعلت ذلك ••

كنت اطعمها وفاء لصلتها بأمى وصداقتها لها ••رحم الله أمى ورحمها•

واجهتنى مشاكل الدنيا حين كبرت ••

كان على أن أخرج الى الحياة ساعيا وراء الشمس واللقمة والحب ••

كانت الشمس هى المخلوق الوحيد الذى يتصف بالكرم فى المملكـة •• أما اللقمة فكانت شحيحة •• أما الحب فكان متوافرا •• هذا النوع من الوفرة الذى يمحو مذاقه من الفم ، ويجعله بلا طعم •

من الصعب أن يتصور القارىء معنى الحياة القاسية التى تعيشها الكلاب الضالة أو كلاب السكك كما يقولون •• حياة قاسية ، عليـك فيها أن تدبر أمر معاشك ، وأمر نومك ، وأمر هربك فى الوقت المناسب •• من يدرى •• قد تتكرر مذبحة الكلاب فى أى وقت •• كل يـوم تنام فى خرابة تختلف عن الخرابة التى نمت فيها أمس •• ليس هنـاك

استقرار ، وهناك هذا الخوف الغامض المجهول من الغد •• وهنـاك هذا الاحساس الدائم بالمطاردة •• أن تكون دائما موضع مطاردة ، يعنى أن تنخلع من صـفاتك وتتحول الى كتلة من الرعب المتحرك الذى ينتظر أهون اشارات الخطر ليجرى •• حياة مرعبة •• مثيرة ، ولكنهـا مرعبة •• تعرفت فى هذه الحيـاة على رجل قـدر لى أن العب دورا فى حياته ، وقدر له أن يلعب دورا فى حياتى •• ثم هذا اللقاء والتعـارف فى احدى الخرائب •• لاحظت أن هناك رجلا من الرعاة ، يلجأ بأغنـامه لاحدى الخرائب ، وهناك يترك أغنامه ويصلى •• اقتربت منه يوما وهو يصلى فسمعته يمجد الله ويدعوه الها واحدا لا شريك له •• أدركت بفطرتى السليمة اننى أمام رجل مؤمن •• وجلست الى جواره حتى انتهى من صلاته والتفت الى •• بصراحة •• لم اشعر بالخوف منه ، انتهـى من صلاته فأخرج طعامه وجلس يأكل •• رغيفا من الخبز وقطعة من اللحم •• رمقت قطعة اللحم فلم أجد فيها أى قطعة من العظـام ، انتابنى اليأس ورغم ذلك هززت ذيلى ، رآنى أهز ذيلى فأخرج قطعة اللحم من فمه قبل أن يأكلها ونظر الى •• هززت ذيلى أكثر •• مـد الى يده بقطعة اللحم وهو يسألنى بلطف هل أحس بالجوع ••

هززت ذيلى أكثر ، ولكننى لم أتحـرك من مكانى •• من يدرى •• ربما كان لطفه البادى كمينا لاصطيادى ، وربما كان يسخر منى •• لا داعى للأمل ••

مد الراعى الى يده بقطعة اللحم •• هززت ذيلى بفرح أكثر : ولكنى لبثت جالسا فى مكانى •• أردت أن أعض نفسى لاعرف هل أنا نائم أم مستيقظ •• لا ريب أننى أحلم •• كثيرا ما حلمت بهذا المشهد •• رجل يجلس وفى يده قطعة من الخبز واللحم •• يأكل هو الخبز ويقدم الى اللحم ••

هو حلم لا ريب فى ذلك •• لكن الدنيا شديدة الحرارة •• ولسانى مدلى من فمى •• كيف يحس النائم وهو يحلم بلذع الحرارة •• أتكون الاحلام قد تطورت ؟ !

أدرك الراعى اننى لا اثق فيه ، فألقى الى بقطعة اللحم •• كـان بينى وبينه ما يقرب من أربعة أمتار •• طارت قطعة اللحم فى الهواء

فرفعت رأسى وأدركت اننى لا أحلم • قفزت فى الهواء وصوبت فمى نحو الهدف والتقطت الهدية ••

جسمى كله يرقص •• ذيلى يرقص •• فمى يرقص •• أسنانى ترقص •• معدتى ترقص •• الشمس ترقص ، والكون كله يغنى ••

آه •• ايها اللحم •• ما أعذب مذاقك ••

قلت للراعى وأنا أرقص وأهوهو :

ــ قطعة أخرى لو أمكن •• هذه أول مرة أذوق فيها اللحم فى حياتى ••

ابتسم الراعى ابتسامة خجلة ، فأدركت أن قطعة اللحم التى أكلتها كانت هى كل طعامه •• جريت نحوه ورحت أقبل قدميه وأشم رائحته وأهز ذيلى •• سجلت رائحته فى عقلى وأقسمت أن أعيش وفيا لهذه الرائحة حتى الأبد ، ويوما آخر بعد الابد ، وساعة أخرى بعد هذا اليوم ••

انصرف الراعى فانصرفت وراءه •• حاول أن يهشنى لأرجع ، ولكننى أصررت على خدمته •• قررت أن أحرسه وأنبح له وأحمى غنمه وأسهر الليل كى لا يصيبه مكروه •• حاول طردى ، ولكننى التصقت به وأنا أقبل قدميه فتركنى أتبعه •• فوجئت بأنه يتوجه نحو قصر الملك •• تشاءمت ، ولكننى دخلت معه وحولنا الخراف لقصر الملك ••

اتضح انه متعهد توريد الخراف للقصر ••

يومها التقيت فى قصر الملك بقصة حبى على الأرض ••

التقيت بكلبة الاميرة « بريسكا » ••

رائع •• رائع •• اقصد قصر الملك من الداخل • تذكرت الخرابة التى اعيش فيها ، وقارنت بينها وبين حديقة القصر ، زاد احساسى عمقا بالفوارق الطبقية •• نعم •• كلب مثقف أنا •• تثقفنا تجاربنا فى الخرائب ونقرأ آلام الدنيا عمليا ونجرب • شاهدت فى حديقة القصر الملكى تمثالا لكبير آلهة المدينة ، تذكرت فجأة أننى شربت كثيرا من الماء، جريت نحو التمثال ورفعت قدمى و « عملتها » •• خرجت لى كلبة سمراء من الحديقة وهوهوت •• هوهوة مدللة ضعيفة من هوهوات القصور • قلت لها : لماذا تهوهوين ؟• قالت : كيف تجرؤ ، ألا تعلم أن هذا تمثال كبير الآلهة المعبودة فى أفسوس • قلت لها : كبير الآلهة

والا صغير الالهة •• كنت محصورا يا ستى فلا داعى للهوهوة والخوتة،
قالت : يقتلك حرس القصر لو علموا انك لوثت معبودهم • قلت هامسا:
أنت كلبة لطيفة ولن تقولى لاحد •• هل تصدقين خرافات النـــاس ••
اليسوا حمقى حين يعبدون الحجارة •• قالت : انت أول مخلوق شجاع
أقابله فى المدينة •• أرجو أن تسجل اعجابى بك •• قلت لهــا : سجلت
الاعجاب وأشكرك • قالت : من أين أنت قادم ، ولماذا أنت نحيف لهذا
الحد • عظامك تبرز من لحمك • أنت مضحك •• قلت لها : قادم أنامن
احدى الخرائب ، التحقت بخدمة الراعى اليوم • السر فى نحافتى هو
سوء التغذية وبخل الناس وغلاء الاسعار وندرة اللحم •• تصورى اننى
لم أذق طعم اللحم فى حياتى الا اليوم •• اعطانى الراعى نصيبه من
اللحم •• قالت : أرجو ألا تشير أمامى الى اللحم أو تذكر ســـيرته ••
سئمت من أكل اللحم كل يوم واتوق لقطعة من العظام •• بدأت أعتقد
انها مجنونة قليلا •• قررت معاملتها بحذر أكثر •• قلت لها : تقولين
أكل اللحم كل يوم •• هل تأكلين اللحم كل يوم •• قالت نعم •• قلت
أليس لديك بعض اللحم الفائض •• قالت : لحم الغـــداء ملقى فى
الصحن لم أمسه •• قلت هل أستطيع أن أرى هذا الصحن •• قالت
سر ورائى فسرت • وصلنا الى طبق كبير يمتلىء باللحم •

أشارت الى الطبق وقالت تفضل بأكله كله •• قلت لها اياك أن تهوهوى
بعد أن آكله أو تتهمينى بالسرقة •• لا أريد أن أسىء الى الراعى ••
قالت أنت تخاطب ناهيش كلبة الاميرة بريسكا •• وما تقوله عيب ••
حنيت رأسى على الطبق وزلطت اللحم زلطة واحدة • لم يكن لدى وقت
للمضغ • من يدرى ماذا تأتى به اللحظة التالية •• بعد غمضة عين
كان الطعام قد تبخر •• قالت الكلبة كيف تأكل بهذه السرعة •• أنت
مفجوع •• ! لقد قررت أن اتزوجك •• اكتشفت اننى أحبك • أيكـــون
هذا هو الحب من أول نظرة •• قلت لها اعتذر عن الزواج وأشـــكرك
على الحب •• ليس فى قلبى مكان للحب • عندما يستغرق الســـعى وراء
اللقمة كل طاقة المخلوق ، يصبح من العسير عليه أن يحب • الحب ترف
لايقدر عليه الفقراء من أمثالى •• قالت حالمة : شجاع ونحيف ومفجوع
وفيلسوف •• زاد حبى لك • دعنى أشم رائحتك • تفوح منك رائحـــة
البنفسج • قلت لها فى الخرابة شجرة بنفسج فعلا • كنت أتصور أن
الترف قد أفقدك حاسة الشم •• قالت : يدور رأسى كلما رأيتك تقف
جوارى• هاودنى وتزوجنى• قلت لها وأنا أجرىبعيدا عنها : اسمع سيدى

ينادينى فمعذرة .. هرعت الى الراعى . وكان الملك مهتاجا يصرخ فى الراعى : لم أرك مرة واحدة تسجد لالهنا أيها الراعى . راقبتك وأنت تمر على تمثال الاله فى الحديقة ورأيت كيف تجاوزته دون سجود هل جننت .

قال الراعى : ضعف نظرى يامولاى فلم أر الهك الموقر .

ارتعشت فى مكانى . ماذا لو علم الملك اننى تبولت على صنمه المعبود. عاد الملك يقول وهو مهتاج : هذه مملكتى أنا . ولن يعبد فيها غير الاله الذى أحدده أنا . وليس للناس رأى غير رأيى أنا . لقد قررت ان يكون حد السيف هو الرأى المطاع فى المملكة .. وسوف أحاسب حتى على الاحلام والافكار التى تدور فى الرؤوس .

قال الراعى : وفق الله الملك فى خططه المستقبلة . ست قطع من الذهب للعجول والخراف والماعز .. أحضرت اليك عجلا سمينا أرجو أن يدفىء بطن مولاى .

أراد الراعى الانصراف فسأله الملك بدهاء مفاجىء .

ــ ايها الراعى .. اراك تحدث وزيرى كثيرا هذه الأيام .. أى شىء يجمع بين راعى غنم ووزير من وزراء المملكة ؟. ارتعش الراعى ولاحظت ارتعاشته .. خرجت من جسده رائحة خوف مفاجىء استطيع تمييزها.. أدركت أن الراعى مهدد بشىء لا ادريه .. وقفت ونبحت ضد الملك .. أسكتنى الراعى باشارة من يده وقال للملك :

ــ لا شىء بينى وبين الوزير ايها الملك .. كان يريد .. كان يريد .. نعم .. تذكرت الان .. كان يريد توريد اللحم لبيته .

قال الملك بدهشة : لست أعرف أن الوزير من هواة اللحم .. يقولون أنه نباتى لا يأكل اللحم .

قال الراعى وقد عاد اليه الهدوء : ولكن اسرته تأكل اللحم .. لم أكن أعلم أن وزير المملكة نباتى .. .

قال الملك فجأة : تستطيع أن تنصرف ايها الراعى ..

ألقى اليه الملك ثمن الماشية وانصرفنا .. لم يذهب الراعى مباشرة الى بيته .. مر على أكثر من بيت وراح ينقر عليها نقرات خفيفة . بعدها البسنى حول رقبتى طوقا من النحاس وتركنى فى حديقة بيته المقفرة. وجاء منتصف الليل فانسل الراعى من فراشه الدافىء وتبعته . خرج

من المدينة قاصدا الجبال القريبة فمشيت وراءه • دلف الى مكان يقع بين جبلين فدلفت معه • كان هناك ستة رجال •• بعضهم رأيته فى قصر الملك • وبعضهم لم أره من قبل • احتضنوا الراعى وقبلوه وبدأ حوارهم الهـــامس •

قال الراعى : ادركت من سؤال الملك اليوم أنه يعرف الصلة بينى وبين وزيره •• يبدو أن الملك يشك فى شىء •• أرى أن نتصرف بسرعة•

قال أحدهم : جن الملك • وغـــدا يبدأ ارهابه • قال رجل آخــر : لقد قرر أن يمزق كل من يعبد الها غير آلهته المتعددة • قال الثالث : نحن جميعا معرضون لخطر الذبح أو الرجم •• وتساءل رابع عن الخطوة التالية • قال الراعى : أرى أن ننتظر الى الغد ثم نجتمع هنا فى نفس الموعد • اذا نفذ الملك تهديده تركنا له المملكة وهاجرنا • أعرف كهفا قريبا نستطيع أن نقضى فيه النهار ، فاذا جاء الليل تسللنا خارج المدينة• انتهى الاجتماع فأنصرفنا فرادى •

نام الراعى فقلت اذهب الى ناهيش فى القصر •• ذهبت اليها فوجدتها تنتظر • قالت لى وأنا أنصرف : اعطنى شـــيئا اتذكرك به يا حبيبى الى أن أموت • خلعت لها الطوق النحاس من رقبتى • كان يضايقنى • انصرفت • لم أكن أعرف أن هذه هى المرة الأخيرة التى أراها فيهـــا •

تنفس الصباح وانعكست أشعة الشمس على برونز السيوف وهى تحصد الرقاب لمجرد الشبهة • قرر الملك أن يقنع الناس برأيه مستخدما سيوف جنده كأداة مبدئية للاقناع • كانت سلطات المدينة تقبض على الناس وترجمهم قتلا بالحجارة •• ثم تقيم لهم بعد ذلك محاكمات عادلة يحكم عليهم فيها بالاعدام • فاذا سأل القاضى أين المتهمون الذين يحاكمهم لتنفيذ عقوبات الرجم فيهم •• حدثوه أن سيف الملك سبق عدل القضاة •• ويصفق الحاضرون اعجابا بعدل الملك وسرعته • وهكذا تطايرت رؤوس كثيرة ، ورجم ناس كثيرون ، ووجدت نفسى فى مأزق• ان الراعى مهدد هو الآخر بافتضاح أمره ورجمه • ولن تسلم رقبتى بصفتى كلبا يعيش معه • ما العمل اذن • هل أهجره •• أكون خنزيرا لو فعلت • أنا كلب صفته الاولى هى الوفاء • قلت فى نفسى : لن أهجره ولو تطايرت رقبتى ألف قطعة •• على العكس •• زاد حبى له وزادت بنفس الدرجة دهشتى من أهل المدينة • انهم يشاهدون أنبل من فيهم يقتل فلا يحركون ساكنا •• تطورت الاحداث بسرعة شديدة •• سمعنا

خبطا على باب الراعى فهوهوت .. فتح الراعى الباب .. دلف منه ستة رجال .. من بينهم وزيران للملك . قال الرجال الستة للراعى . الى الكهف أيها الراعى . أسرع .. ليس هناك وقت .. وأسرعنا وراء الراعى الى الكهف .. أمرنى الراعى أن أجلس على باب الكهف من الداخل . وأن أحرسهم جيدا وانبح اذا اقترب أحد .

لم أكن أريد أن أنام .. هذه أول مهمة رسمية يكلفنى بها الراعى ويجب أن أثبت وفائى .. سمعت أحدهم يقول : **« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا »** ..

سمعتهم يقولون **« ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا »** .

تفرق الرجال فى الكهف ورقدوا ..

كانت مهمتى هى حراستهم . بسطت ذراعى بالوصيد واتخذت وضع الحراسة ..

أغمضت عينا وفتحت عينا وقلت أحرس هؤلاء المؤمنين بالله .. ثم وجدت عينى المفتوحة تنغلق من تلقاء نفسها .

رحت فى النوم .. استيقظت أول واحد .. وجدت نفسى ميتا من الجوع .. وجدت شعرى قد نما حتى أدهشنى منظره .. ما هذا . أنكون قد نمنا أسبوعا .. نبحت أوقظهم فاستيقظوا .. خرجوا الى باب الكهف فرأيتهم فى الضوء وازدادت دهشتى . كانت لحاهم قد طالت لاقدامهم ، وكان شعرهم يسترسل وراء ظهورهم ويجرجر على الأرض مثل طرحة العروسة . كان منظرهم مرعبا .. أردت أن أفر منهم لولا اننى تشممت رائحتهم فوجدتها كما هى لم تتغير .. بدأوا يتساءلون بينهم **« قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . انهم أن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا »** .

تقرر اختيار الراعى للخروج وخرجت معه ..

بصراحة •• كدت أفقد عقلى •• أين ذهبت أفسوس •• أين ذهبت البيوت والقصور والدور والخرائب •• كانت هناك مدينة ثانيـــة • وملابس ثانية • وكلاب لا تشـــبه الكلاب التى تركتها قبل أن أنام • التف الناس حول الراعى وراحوا يشيرون الى ملابسه ويتهامسون •• أهذا سائح جديد •• ما الذى يرتديه •• لماذا طالت لحيته هـــكذا •• انظروا الى كلبه هو الآخر •• انظروا لشعره الطويل • راحت الكلاب تنبح حولنا ثم تفر مذعورة كأن ألف شيطان يطاردها • دخلنا مطعما دلنا عليه النـــاس واشترينا قليلا من اللحم والخبز ، ومد الراعى يـــده فى جيبه وأخرج قطعة ذهبية من القطع الست التى أعطاها له الملك قبل أن نلجأ الى الكهف وننام •• لم يكد البائع يرى عملة الراعى حتى صرخ : عملة أثرية • من أين أحضرتها أيها الرجل الغريب • هل عثرت على كنز • زاد اللغط وتكأكأ الناس حول الراعى فقلت : أطير الى ناهيش فهى وحدها التى تستطيع أن تحدثنى عن الحقيقة • كان هناك قصر آخر بدلا من قصر الملك الذى تركته • لم يزل بهو الأعمدة على حاله وان كان قد تكسر وأدركته الشيخوخة •

نبحت قائلا : ناهيش •• أين أنت ياناهيش • خرجت لى كلبة سمراء وتساءلت : من الذى يدعو جدتى من أعمق أعماق الموت • ملأتنى الدهشة

كانت هى ناهيش بعينها ••

قالت الـــكلبة : أنا ناهيش الصـــغيرة •• خيل الى أنها تتدلل على فاقتربت منها فتراجعت كأننى شبح ، ماذا تريد منى أيها الكلب الغريب الذى خرج من التاريخ عائدا الى الزمن • قلت بنفاذ صـــبر : ما هـــذه الفلسفة يا ناهيش •• أين ذهب حيـــاؤك القديم •• أين ذهب صـــفاء عينيك • قالت ضاحكة : كله الا الحياء وصفاء العينين •• من أنت وماذا تريد • قلت لها صارخا متوجعا : أهكذا تغيرك ليلة واحـــدة •• أيهـــا الوفاء الذى التصق زورا بجنس الكلاب • فى أى بحر من بحار الغـــدر ترقد •• قالت بدهشـــة :

لـــماذا تبكى هكذا وأنا لم أرك قبل الآن • أدركت أنها تتنكرت لى •• يحدث هذا كثيرا فى دنيـــا الكلاب •• قلت لها بألم وتوجع : تتنكرين لى بعد كل ما حدث ؟ آن السماء تنشق داخل قلبى ، والنجـــوم تهـــوى محترقة • والشـــمس تنطفىء • أمات حبك لى قبل أن نهضم طعـــام

العشاء . حمدا لله اننى لم أتهدم . لم أنهـــر . لم اتزلزل . لـــم أزل اتنفس .. لم أزل حيا لانك لاتزالين حية .. هاووو هاوو .

قالت منتشية : كلام لم يقله لى كلب فى حياتى قط ، على كثرة من عرفت من الكلاب . ما الذى فعلته لك لتعوى هذا العواء ، كيف أخونك وأنا لم أرك غـــير الآن .. حركت رقبتها فرأيت الطوق المعـــدنى الذى أهديته اليها ليلة زواجنـــا . قلت لهـــا : كيف تحتملين مس الطوق على رقبتك . الا يحرقك نحاسه .. تخـــونين من أهدى اليـــك الطوق ، ثم تلبسينه بكل التبجح .. قالت وهى تتراجع : آه .. أدركت حكايتك .. ليس هذا الطوق ملكا لى . هذا طوق كلبة الاميرة بريسكا . وقد ماتت منذ ثلاثمائة عام .. توارثناه منها جيلا بعد جيل .. يا الهى .. تقول انك أهديت اليهـــا الطوق .. هل أنت قطمير .. هل أنت الـــكلب الذى أحبته وماتت وهى تعوى مقسمة على الوفاء له .. هل أنت ..

لم أسمع بقية حديثها .. أحسست اننى أنهـــار وانقوض .. بدأت الحقيقة تسطع فى عقلى وتغزو كيانى فجأة . اذا كانت ناهيش قد ماتت منذ ثلاثمائة عام ، فهذا يعنى أننا نمنا أكثر من ثلاثمائة عام ..

ارتعش داخلى شىء وبدأت أفهم .. ذهب صـــنم الاله المعبود من أفسوس . هذا معناه أن الايمـــان هو الذى انتصر . أنكون قد نمنا ثلاثمـــائة عام لنـــكتشف هـــذه الحقيقـــة .. بالنســـبة لى ، كانت ناهيش قد ذهبت .. ضاعت .. ماتت . وكان هـــذا كل ما يعنينى من الامر .. انخرطت فى بكاء عميق ودفنت رأسى فى الارض وعـــويت .. قالت حفيدة ناهيش وهى تقترب منى أكثر : يا الهى .. ألهذا الحـــد أحببتها .. كنت أتصورك تتحدث الى .. ظننت أنك تغـــازلنى أنا .. لمـــاذا خفق قلبى حين رأيتك .. أيكون الحب قادرا على الاستمرار رغم الزمن .. لمـــاذا لا تكلمنى .. يقتلنى تجاهلك لى .. أنا أجمل من جدتى ناهيش .. انظر كيف قصصت شعرى على الموضة . كانت كلماتهـــا تصل الى عقلى مختلطة بصوت بكائى .. قالت حفيدة ناهيش وهى تضع رأسها على صدرى .. حاول أن تنساها .. انظر الى وحاول نسيانها . أزحتها وعدت الى الـــكهف . نادتنى حفيـــدة ناهيش .. هوهوت لى بحب ، توسلت وهزت ذيلها ، ولكننى كنت غريقـــا فى بئـــر من الاسى العميق والحزن الاســـود .. ذهبت ناهيش . لن أسمع صوتها بعـــد

اليوم . لن أشم رائحتها . لن تلمع عيناها بالحب .. خيل الى أن طرقات المدينة تجهش بالبكاء .. طاردتنى كلاب المدينـــة وكانوا يهوهوون ثم يفرون آمامي مذعــورين .. زاد احســاسى بالوحدة واليــأس ورأيت أقدامى لا تكاد تحملنى الى الكهف . تحاملت على نفسى حتى وصلت . رأيت أهل الكهف وقد أصابهم ما أصابنى . كانوا ذاهلين يتبادلون حوارا متقطعا لاهثا يتخلله صمت غريب .. جريت الى الراعى ورميت نفسى على قدميه وأجهشت بالبكاء . لم يعد لى غيرك فى الدنيا أيها الراعى.. ذهبت ناهيش .. ماتت .

مد الراعى يده الى رأسى وراح يربت عليها .

كان رأسى يدور ..

سمعت الراعى يسأل الوزير : كم قالوا اننا لبثنا فى الكهف .

قال الوزير : ثلاثمائة عام وتسع سنوات .

قال الراعى : كيف نمنا كل هذه الحقبة ..

قال الوزير : هذه ارادة الله .

قال الراعى فرحا كمن اكتشف شيئا : أطلعنا الله على عاقبة أمره فى المكذبين ..

قال الوزير : صدقت أيها الراعى .. انهزم الملك وسقطت آلهته .. من كان يتصور .

قال أحدهم : قد علمنا الآن أى الحزبين أحصى لما لبثنا أمدا ..

قال أحدهم : أقول لكم شيئا .. لقد أحسست بالغربة فى المدينة .. عدت الى الكهف كمن يعود الى بيته . مات أبنائى وزوجتى ولم يعرفنى فى المدينة أحفاد أحفادى ، ذكرتنى فجيعته بفجيعتى فهوهوت معولا ..

تذكرت ناهيش القديمة ورحت أقارن بينهـــا وبين حفيدة حفيدتها فازادد حزنى على القديمة ..

اقتربت أصوات عديدة من الكهف فنسيت حزنى وقفزت الى باب الكهف ونبحت .

كان ملك المدينة الجديد ووزراؤه وكبار حاشيته يتقدمون شـــعب افسوس كله .. كانوا قادمين الى الكوخ وهم يمسكون بأيديهم أغصان الزيتون والزهور والورود . من المدهش أن حفيدة ناهيش كانت معهم..

لم أكد أرى هذا الجمع حتى نبحت مرتين بعنف فتوقفوا جميعا • أشار الملك لى : معهم كلب •• ما أعجب ما حدث ••

قال أحد وزرائه : نام الكلب مع القديسيين ثلاثمائة عام وتسع سنوات •• عاودت النباح فوقفوا فى مكانهم جامدين • رفع أحد حراس الملك سيفه يخيفنى فازداد نباحى • قال الملك وهو يعترض يد حارسه •

ـ اياك أن تمس هذا الكلب المبارك •• لقد نام معهم طوال الفترة التى ناموها •• ثم أننا لا نقتل الكلاب بغير جريمة •• من يؤمن بالله لا يؤذى مخلوقاته الأضعف • أدركت أن العدالة قد عادت الى الأرض فكففت عن النباح •

حين عاد الايمان بالله عادت معه العدالة •

صاح الملك : أيها القديسون •• ليخرج منكم أحد • ان ملك أفسوس هو الذى يخاطبكم • خرج الراعى وخرج بعده رفاقه •

انحنى الملك ووزراؤه وحاشيته وانحنى الشعب لنا ••

قال الملك : أيها القديسون المباركون •• نريد أن نسمع قصتكم •

كنت أعرف القصة فانصرفت الى باب الكهف وجلست •• جاءت حفيدة ناهيش تقول لى : لماذا تجلس وحدك •• ألم تزل تذكرها •

قلت : لم أنم غير ليلة واحدة •• فكيف أنسى فى ليلة واحدة •

قالت : بل نمت سنين عددا •

قلت : نامت عيناى وظل قلبى يقظا فكيف أنسى •

قالت : فيلسوف أنت ياقطمير ••

قلت هامسا : كانت تسمينى فيلسوفا ومفجوعا ••

قالت حفيدة ناهيش : ماذا تقول •

قلت : أبـــدا ••

قالت : أراك تشيخ برأسك عنى •

قلت : لم يزل قلبى مشدودا اليها ••

قالت : الوفاء طبعك الأصيل ياقطمير •• لكنه وفاء يجرح قلبى •• أتراك لم تعد كلبا ••

قلت : لست أعرف ••• لقد متناولم نمت •• نمنا فكيف نمنا ثلاثمائة عام وتسع سنوات ••

أغمضت عينى وفتحتها فاذا العصر غير العصر والمدينة غير المدينة والناس غير الناس •• ان آية الله حين تقع تثير دوار العقل والقلب•• وعقلى يدور وقلبى ينسكب فى صدرى كالماء ينسكب •لم أعد أحس أننى أنتمى لجنس الكـلاب على الأرض •• انهم يفرون منى •• يهربون

قالت : ولكننى لا آفر منك •• أنت الذى تفر منى •

قلت : النتيجة واحدة ، والغربة أصلا متحققة ، وفرارهم منى هو السبب فى فرارى منك •• والنوم فى الكهف يفصل بيننا ، لم أعد ملكا لزمانك أى زميلة الهوهوة ••

حيل بينى وبين هذا العصر عندما آغمضت عينى فى الكهف ••

أنا ملك للتاريخ •• صرت ملكا للتاريخ •• صرت آية من آيات الله أنا المخلوق البسيط القريب من الأرض •

اننى أرتعش بالغربة والدهشة وشىء من العظمة •• لا أنكر • يزيد حزنى على جدتك ناهيش ويزيد فرحى فى نفس الوقت •• ولد فرحى الآن فلماذا ولد • أتراني فى الطريق اليها ••

خيل الى اننا ندخل باب الكهف من جديد ، لننام بحق هذه المرة ••

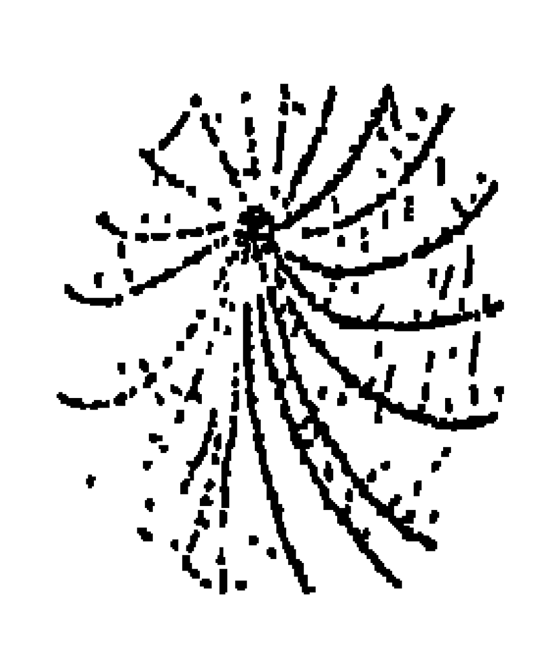
خيل الى ان ناهيش هناك •

فى هذا الركن الساكن المظلم الرائع •

وألقيت بنفسى فى ظلام النور •



عنكبوت الغار



أنا عنكبوت ولا كل العناكب •• لو وضعت عناكب الدنيا فى كفة ، لرجحت كفتى ولا فخر •• لست فى مجال الادعاء والتفاخر •• انما أذكر الحقائق •• لا أظن اننى أحتاج لتقـديم نفسى الى القـارىء •• فهمتم •• فهمتم اننى عنكبوت الغار الذى اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم •• أنا المسـئولة عن نجاة الرسـول •• أنا التى حميته •• نسيجى رقيق هفهاف تطيره أقل هبة من هبات الهواء ، ورغم هذا النسيج الضعيف •• وقفت أمام حديد السيوف الكافرة التى خرجت تطارد النبى ، واستطعت أن أهزمها • أسـفر الصراع بين حـرير العنكبوت الضعيف وحديد السيوف القوى عن هزيمة الحديد •• انهزم الحديد أمام الحرير •• وجلست فى بيتى الذى يضرب به المثل فى الضعف •• ان أوهى البيوت لبيت العنكبوت • جلست فى بيتى أحمى بيت الاسلام الكبير واحرس نبى الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم •

ليس هذا فحسب ما وقع لى •• وقع لى ما هو أروع من ذلك • رأيت النبى •• أعرف أن هذا النبى عنـدما يموت ، سيقصد قبره الملايين للبكاء والدعاء • وسيتصور كل واحد من الباكين الداعين صورة لرسول الله فى عقله • أنا رأيته •• عشت معه ثلاثة أيام •• عاش ضـيفا فى حراستى ثلاثة أيام •• آه يدور قلبى حين أعاود تذكر أيامه •• كانت أياما مهيبة •• كنت أحب ــ قبل أن أراه

العناكب والطعام والحياة •• بعد أن رأيته لم أعد أســتطيع أن احب سوى الحقيقة •• تغيرت بعد أن رأيته •• هل رأيتم عنكبوتا تبكى قبلى • بكيت أنا العنكبوت حين انتهت فترة ضيافتى له وخرج من الغار قاصدا المدينة •••• قلت له يا رسول الله سوف أفتقدك ••

لم يسمع ما قلته له عليه الصلاة والسلام •• عدت أقول له يارسول الله اعطنى يدك أقبلها •• أو دعنى أقبل طرف ثوبك •• لم يسمعنى ومضى •• غير انه وهو يخرج من الغار اضطر أن يحطم بيتى الذى بنيته له •• لم أفهم لماذا فعل ذلك •• أحيانا أقول انه كان لابد أن يحطم بيتى لكى يخرج •• كان بيتى أنا باب الكهف •• وكان لابد من فتــح الباب •• ومد الرسول يده الى بيتى وأزاح حرير البيت بلطف ••

حاولت أن أقترب منه لاقبل يده •• لم يلاحظ اننى أريد أن أقبل يده •• استردها قبل أن انحنى عليها لتقبيلها •• وخرج •

وانكفأت على الحرير الممزق الذى كان بيتى وقلت : مس الحرير يد رسول الله قبلى •• وبكيت ••

ظللت أبكى حتى ذاب بيتى فى دموعى •• وعاد الغار كما كان •• أحكى قصتى من بدايتها •• أرجو أن يعذرنى القارىء لأننى مضطربة للغــاية ••

كنت من عناكب الجبال • وعناكب الجبال هى أتعس العناكب حظا •• ان طعامنا الأساسى هو الذباب والحشرات • وقد ولدت فى كهف مهجور فى غار موحش فى جبل ثور •• وهو جبل من جبال مكة •• ومكة مدينة صغيرة لم أرها فى حياتى أبدا •• وأحيانا نسمع من الحمام وهو يطير تسبيحات نفهم منها ان هذا الحمام يعيش فى حمى بيت الله فى مكة •• وكنت أحاول أن أتصور شكل مكة أو منظر بيت الله فلا أستطيع •• كنت أعيش حبيسة فى غار ثور • وهو غار موحش أثناء النهار مخيف أثناء الليل ، هو غار يقع جنوبا فى اتجاه اليمن ، ولا أحــد يزورنا ، حتى الوحوش تهرب من وحشة الجبل وتفضل عليه جبالا مأنوســة تضم غيرها من الخلائق •

باختصار •• كيف أنا سيدة هذا الجبل ومليكته •• أنا العنكبوت « مامو » ابنة العنكبوت « موما » حفيدة العنكبوت « مماو » توارثنا الحياة فى هذا الجبل منذ أزمنة بعيدة •

وجـــاء يـــوم ..

كنت مدلاة من سقف الغار فى خيط من خيوط الحرير الذى صنعته .. وكانت الدنيا شديدة الحرارة ، فرحت أؤرجح نفسى ذهابا وايابا فى الغار .. ثم سمعت صوتا لا ينتمى لهذه الأرض وهو يسأل :

ــ من يسكن هذا الغار من مخلوقات الله .

انكشف الحجاب عنى وأدركت أننى أستمع لصوت سيد من الملائكة أوقفت نفسى عن الاهتزاز وحنيت جسمى كله وسجدت سجود تحية .

رددت على الصوت الملائكى قائلة :

ــ تتشرف بالحديث اليك عنكبوت الغار مامو ابنة موما حفيدة مماو . قال الصوت الملائكى : اخرجى الى باب الغار .

حركت خيط الحرير الى باب الغار وخرجت .

قال الصـــوت : بعد قليل ، ســيهبط الغـــار اثنان من رجـــال الله .. محمد صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه فى الدنيا والآخرة أبو بكر .

سألت ــ ولم أزل ساجدة ــ : من يكون محمد صلى الله عليه وسلم قال الصـــوت : هذا آخـــر أنبياء الله فى الأرض . ورحمة الله التى ارسلها للعالمين .. أنت خادمته مع صاحبه ثلاثة أيام فى الغار .

سألت ودهشتى تتعاظم ــ ما الذى يجيىء به لهذا الغار الموحش . قال الصـــوت : ــ خرج مهاجرا تطلب القبـــائل الكافرة دمه .. كم يلزمك من الوقت لبناء بيتك على باب الكهف ..

قلت وأنا أقيس الزوايا : أربع ساعـــات من العمل المتواصـــل الذى تتخلله فترتان من الراحة ..

قال الصـوت الملائكى آمرا : اشتغلى بغير راحة .. ان الله يكلفك بأمانة الحراسة .. وتستودعك العناية الالهية مصير الرسالة الخاتمة .. ومستقبل حضارة كاملة .

زاد سجودى وهمست ــ سمعا وطاعة .

انصرف ســـيد الملائكة .. وناديت الصمت والوحشـــة والانقطاع ان يحضروا .. وبدأت أعمل ..

نظرت فى غددى السبع التى تصنع الحرير •• الغدد مليئة •• تأملت باب الغار •• الباب واسع •• رحت أقيس الزوايا واحسب بسرعة من أى زاوية أبدا •• سأحتاج الى خمس دعائم صلبة من الحرير •• وسنخرج منها ستة وعشرين خيطا كدعائم تكميلية •• وسنحتاج الى خمسة وتسعين خيطا لتثبيت الجدران •• بدأت أصنع الحرير •• هذا النسيج الهفهاف أقوى من أى صلب يتحول الى خيط دقيق قطره واحد على ألف من البوصة •• هذا قطر خيطى أنا العنكبوت •• لا يعرف الناس أن العناكب تستطيع أن تقيس الزوايا وأن تقسمها ، وان تقدر متانة المواد وشدة الضغط ، وان تحسب حساب آلاف المشاكل الهندسية المعقدة التى تواجه عملية البناء •• لايعرف الناس أن العناكب تنسج ضروبا من الحرير تقضى بها كل حاجة •• نستعمله شركا ومائدة وفراشا وملاءة لف وجهاز انذار وطريقا للفرار وقيدا وسبيلا للانتقال ودرعا للحماية هو أكثر المواد التى يصنعها مخلوق حى فى تعدد منافعه •

وما تفرزه غدد العنكبوت حرير ولاريب كالحرير الذى تخرجه دودة القز ، ولكن هناك فروق بين حرير دودة القز ونسيج العنكبوت • وهذه الفروق تجعل نسيج العنكبوت أفضل ، فهو أرق وأنعم وأمتن من أى حرير آخر •• فوجئت أن الرسول يدخل الغار مع أبى بكر •• توقفت عن العمل لحظة •• نظرت فى وجهه النبيل المهيب الذى يشبه صفحة الذهب ، وأحسست بخشوع عميق •• بعدها قلت له : أهلا بك ومرحبا يا رسول الله ••

لم أكد أكمل تحيتى له حتى بدأت أنسج بيتى على باب الغار •• انحدرت انحدارا عموديا من فتحة الغار الى أرضه ، وأنا أصنع خيط الحرير ، ثم شددته وثبته فى الأرض بمادة حمضية أفرزتها من غدتى ، ثم صعدت متسلقة بسرعة الى باب الغار ، ورحت أهبط وارتفع وأميل الى اليمين واليسار وأنا أنسج بيتى •• انتهى النسيج فى ثلاث ساعات وست دقائق وعشرين ثانية •

وصل الكفار الى باب الغار •• سيوفهم اللامعة تقف وجها لوجه امام حريرى العنكبوتى •• قال أحد المشركين :

لو دخل هاهنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه ••

ابتسمت داخل بيتى ابتسامة واسعة •• قال أبو بكر للنبى بصوت خافت :

ـ لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لاتحزن ، ان الله معنا .

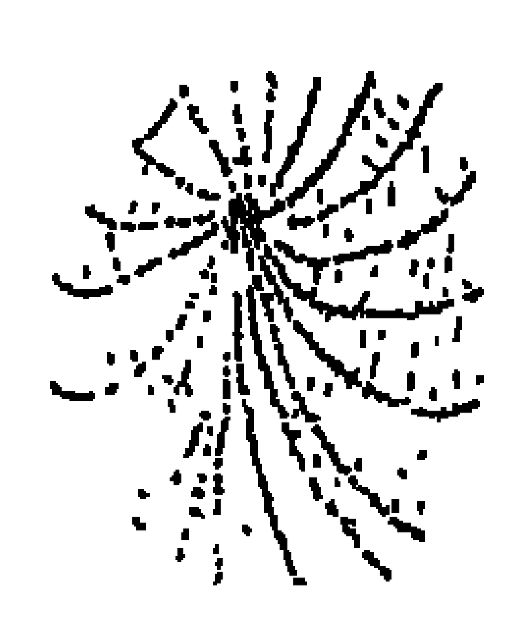
لم يكد الرسول يقول كلماته حتى امتلأ المكان بالملائكة فجأة .. امتلأت بصوت يقول :

« ألا تنصروه فقد نصره الله . اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار . اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا . فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

لم يكد ينتهى الصوت حتى امتلأ الغارفجأة حولى بالملائكة .. فوجئت بملائكة تقف أمام بيتى العنكبوتى وتقف خلفه .. سألت أقربهم لى.. ماذا حدث ؟ .. قال : جئنا بأمر الله نحمى نبيه الكريم .. قلت صارخة: ولكننى مكلفة بحمايته .. مكلفة بحراسته .. لماذا تكسرون قلبى .. لن يجرؤ أحد عليه .. انه ضيفى أنا .. خادمته أنا .. بكيت من فرطالانفعال فأدهشنى اننى أستطيع أن أبكى ..

التفت الى الرسول وأردت أن أشكو له .. رأيته مشغولا بالصلاة .. كان يصلى وخلفه صاحبه أبو بكر ..

وسجدت معهما حين سجدا .



مراجع الكتاب

لاعتقادى أن هذا الكتاب فن من لون معين .. فقد استعنت فيه بنوعين من المراجع .

المراجع الدينية :

- قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ■ وتفسير القرطبى والمنار .
  وقد ورد ذكر غراب ابن آدم فى سورة المائدة .. آية رقم ٣١ .
  وورد ذكر طير ابراهيم فى سورة البقرة .. آية رقم ٢٦٠ .
  وورد ذكر ذئب يوسف فى سورة يوسف .. آية رقم ١٧ .
  وورد ذكر حوت يونس فى سورة الصافات آية رقم ١٤٢ .
  وورد ذكر بقرة بنى اسرائيل فى سورة البقرة آية رقم ٦٧ .
  وورد ذكر هدهد سليمان فى سورة النمل آية رقم ٢٠ .
  وورد ذكر دابة الأرض فى سورة سبأ آية رقم ١٤ .
  وورد ذكر حمار عزير فى سورة البقرة آيات رقم ٢٥٩ .
  وورد ذكر كلب أهل الكهف فى سورة الكهف آيات رقم ١٨ .
  ولم يرد ذكر عنكبوت الغار الا فى السنة المطهرة . رواه أحمد فى المسند .

المراجع العلمية :

- The animal Kingdom موسوعة علمية من ثلاث مجلدات لسبعة من علماء متحف التاريخ الطبيعى فى أمريكا . جورج جودوين ، وشالز بوجرت ، ودين امادون ، وتوماس جيليارد ، وكريستوفر كوتس ، وجيمس أتز ، وجون باليستير .. تحت اشراف فريدريك دريمر . مطبعة جراى ستون . نيويورك .

- موبى ديك — رائعة أدبية تأليف هرمان ملفيل .
- دنيا الحيتان لروى تشابمان اندروز ترجمة د. محمد صابر سليم
- دنيا الحشرات لفرديناند لين ترجمة د. أحمد أبو النصر .
- عالم الطير فى مصر د. أحمد محمد عبد الخالق .
- سلوك الحيوان د. أحمد حماد الحسينى .
- أضواء على قاع البحر د. أنور عبد العليم .
- رحلات الحيوان والطيور .. مريد ينى حنا .

الفهـــــرس

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٣ / ٣٧٦٢

هـذا الكتاب

يقدم لنـا القرآن الكريم فى قصص الأنبياء والأولياء ، مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية التى لعبت دورا فى التاريخ . ■ الغراب الذى بعثه الله لابن آدم ليريه كيف يوارى سوأة أخيـه ■ الطـير الذى ذبحها ابراهيم الخليل ومزقها على قمم الجبال واستدعاها فجاءته تسـعى ■ بقـرة بنى اسرائيل التى أمر موسى بذبحها لكشف جريمة قتل ■ الذئب الذى اتهم ظلما بالتهام يوسف ■ هدهد سليمان الذى أطلعه على نبأ يقين من مملكة سـبأ ■ دابة الأرض التى كشفت أن الجن لا يعلم الغيب حين أكلت عصا سليمان ■ حمار عزيز الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه أمام عينى صاحبه ■ الحوت الذى ابتلع يونس فى جوفه ثم نجا منه بالتسبيح ■ كلب أهل الكهف الذى نام مع أصحاب الكهف ٣٠٩ سنة ■ وتقدم السنة المطهرة قصة العنكبوت التى نسجت بيتها على باب الغار الذى لجأ اليـه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر .

فى هذا الكتاب .. يقدم احمد بهجت تجربة فريدة من نوعها حين يكتب قصص الحيوان الذى ورد ذكره فى القرآن .. من وجهة نظـر الحيوان ذاته .. ملتزما بالبنـاء الأصلى للقصة الدينية كمـا وردت فى القرآن ، مستعينا بالموسوعات العلمية فى تحديد طباع الحيوان ، مطلقا العنان لفنه فيما بقى من مشاعر الحيوان وأحلامه ووجهة نظره .

نشرت فصول مختصرة من هذا الكتاب فى جريدة الأهرام وقراها مئات الألوف ، وترجم ما نشر فى الأهرام الى اللغة الألمانية فى احدى الصحف الجامعية الألمانية .

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع

مطابع الأهرام التجارية

